أبو زكرياء محمد صغيري

رجال صدقوا

سيرة عالم ربّاني من أبناء سجلماسة والغرب الإسلامي

الشيخ الحاج محمد بن العربي صغيري السجلماسي

قدم له فضيلة الشيخ

محمد زحل

بسم الله الرحمن الرحيم

الـكـتـاب : رجال صدقوا

المـؤلـف : أبو زكرياء محمد صغيري

الـنـاشـر : المؤلـف

الـطـبـعـة : الأولى 1430هـ - 2009م

المطـبـعـة : مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء

الإيـداع : القانوني رقم 2227 MO 2009

عنوان المراسلة :

مسجد الإخلاص السباتة الدار البيضاء - المغرب

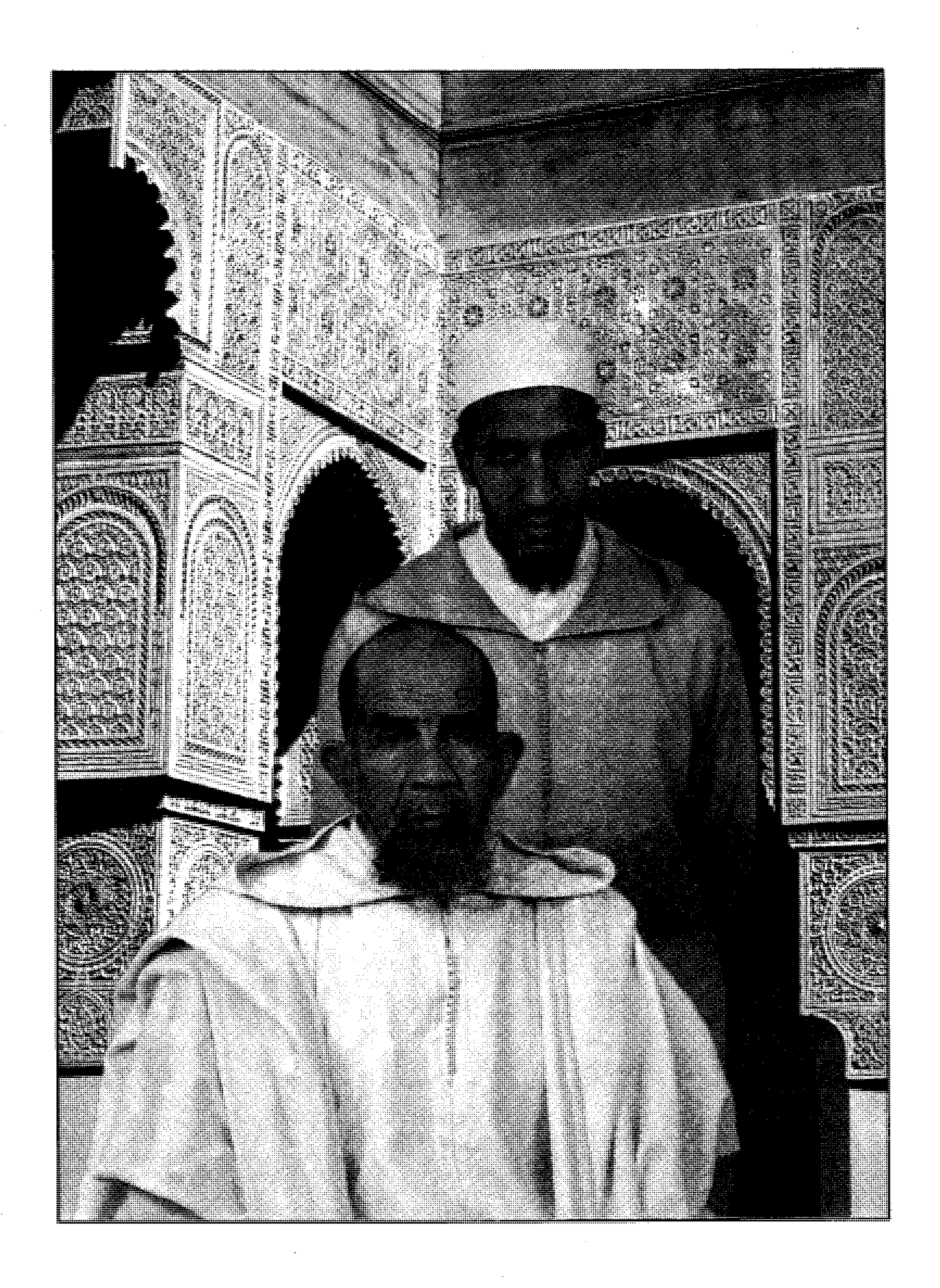
الهاتف : 06.70.18.56.83

الإهداء

إلى والديّ اللذين ربّياني صغيرا، وحملا همّي كبيرا،
وغمراني بعطفهما ودعواتهما، أهدي ثواب عملي هذا
وأضرع إليه أن لايحرمني من الأجر معهما

إلى ابني البكر - عبد الكريم - ليكون محفزا له على التأليف والعطاء،
وعنده الكثير إن استغل وقته، وأحس بالمسؤولية تجاه أمته.

أبو زكرياء محمد صغيري
مسجد الإخلاص
الدار البيضاء



المؤلف خلف والده المترجم له

تقديم

لفضيلة الشيخ محمد أحمد زحل [1]

بسم اللـه الرحمن الرحيم، وبه سبحانه أستعين

عَرض عَلَيَّ أخي الفقيه العلامة الأستاذ "محمدالصغيري" الفيلالي السجلماسي، حَفِظه اللـه ورعاه، وسَدَّد على نَهْج السَّلف الصالح خُطاه، الْمقالات التي كَتبَها في السيرة الذاتية لوالده، طَيَّب اللـه ثراه، ونَوَّر ضريحه، وبَوَّأه مقْعَد صِدْق عند مليك مُقْتدِر، وكان من أَعْيان سجلماسة، وعُلمائها الأَعْلام، وصُلحائها،

(1) شيخنا الفاضل: محمد زحل، أطال الله عمره في طاعته، وخدمة دينه، هو العلامة المحقق، والمحدث اللوذعي، والمفسر النبيه، من رجالات الحركة الإسلامية، وعمدها الأوائل، والأب الروحي لها، داعية صادق، ابتلي فصبر، وسجن فاحتسب، ارتبط الإلتزام بالإسلام عند جيل من الشباب بالبيضاء باسمه، ونفع الله به القاصي والداني، وصان نفسه من عفونات الدنيا والتكالب على مناصبها، وأخلص لله في دعوته، فرزق الود والقبول، وتربع عرش القلوب محبة وإكبارا، ولد حفظه الله سنة 1363 هـ 1945 م وهو الآن يقوم بدروس علمية ووعظيةفي التفسير والحديث، بالمسجد العتيق بعين الشق، ومقصد الناس في النوازل والفتوى، يؤمه الناس لذلك في مكتبه وبيته وطريقه وهاتفه، وأخيرا فالشيخ غني عن التعريف، و أشهر من أن يعرف، فهو الشمس في رابعة السماء، والقمر ليلة البدر،

يذكرني طلوع الشمس صخرا ... وأذكره بكل مغيب شمس

وهو العلم، والعلم لايحتاج إلى من يعرفه:

إسْمٌ يُعين الْمُسمى مطلقا ... علمه ....

والكلمات والعبارات، مهما أوتيت من فصاحة وبيان، فهي عاجزة عن الإفصاح عما يختزنه الفؤاد من وفاء وتقدير، وحسبي أن أتمثل بقول القائل:

إذا نَحنُ أثنينا عليك بصالح، ... فأَنْتَ كما نُثني وفوق الذي نُثْني

وإنْ جَرت الألفاظُ يَوْما بمدحة ... لغيرك إنسانا فأَنْتَ الذي نَعْني

وفُضلائها الكِرام، الذين نشَروا العُلُوم والْمعارف في رُبوع ذلك الإقليم، من أقاليم وطَننا العزيز، وأَناروا السَّبيل لِمُعاصريهم، والأَجيال التي جاءت بعْدهُم، وأَطَّروا طَلَبة العِلم هُناك، تأطِيرا شرْعِيا عاليا، أَهَّلهُم لِتحمُّل مَسؤُولياتِهِم، في النُّهوض بمنْطقتِهِم، وسدِّ حاجاتِها، في شتَّى الْمجالات، فكانَ منهم القارئ، والْمُدرس، والإمام والْخطيب، والدَّاعية، والشاهِد العدْل، والقاضي الضَّابط، والْحاكم، والكاتب والْمُوثِّق، وغيرهم.

صلتي بالولد قبل الوالد:

وقد شاء الله أن أَتعَرَّف على الْوَلَد قبلِ الوالد، فلقد كان الأستاذ "الصغيري" خطيب المسجد الجامع بمدينة "يفرن"، التي تُعتَبَر عَروس"الأطلس المتوسط"، وأَحَد أَهَمِّ الْمُنتجَعات والْمصايف، في بلادنا "المغرب الأقصى"، لِما اشْتهرتْ به من مِياه، وثُلوج، وغابات، وبُحيْرات، مِمَّا مَيَّزها بِمُناخ خاص، وطَقْس مُعْتدِل بارد في أَشْهُر الصَّيف، الشَّيئ الذي جعل الكثير من الأُسَر الْمُوسِرة والْمُتوسِّطة، تَؤُمُّها لِقضاء عُطْلة الصيف بِها، والاسْتِمْتاع بِمَناظِرها الرَّائِعة، ومُرُوجِها السَّاحِرة الْخلاَّبة، وكان هؤلاء الزُّوَّار يَؤُمُّون جامع "إفران" في وسط البلد، لأداء صلاة الجمعة والجماعة، فيُصادِفون دُروس الأستاذ "الصغيري" وخُطَبه، وكانت دُروسًا قَيِّمة، وخُطَبا عَصْماء، كثيرة النَّفع والفائدة، مِمَّا هيَّأ للشَّيخ الشَّاب، ولِدُروسه وخُطَبه ومَواعظه، مُناخا طَيِّبا، وصَدى واسِعا، فنالتْ قَبُولا حَسَنا، وانْتزعتْ إعْجابًا بالغًا، ليس في "إفران" فحسب، بل وصَل إشْعاعُها إلى مُدُن" فاس" و"مكناس" و"القنيطرة" و"الرباط" و"الدار البيضاء" و"خنيفرة" و"بني ملال"،

وكان المحسن: "الحاج محمد بوكاري" المعروف ب"حيدة"[2] من سُكَّان "الدارالبيضاء" الذين يَرْتادون "إفران" في كُل صَيف، والذين أُعْجِبوا في الوقْت نفسه بِدُروس الأستاذ "صَّغيري" وخُطَبه ومَواعِظه، وصِدْقه في تَشَبُّثِه بقِيَمِه ومَبادِئه،

(2) الحاج حيدة توفي رحمة الله عليه سنة 2002 وهو من رجال البر والإحسان، بهذا المغرب العزيز، شارك في بناء عشرات المساجد ودور القرآن الكريم، بكثير من مدن المغرب وقراه، تقبل الله منه وأثابه على ذلك في جنات الخلد

وإخْلاصه، وجِهاده في دعوته، فَبنَى مسجدا في "حي إفريقيا" بمدينة "الدار البيضاء"، سَماه "مسجد الإخلاص" واقْترَح على الأستاذ "الصغيري" أَنْ يَتقَلَّد الْخَطابَـة فيه، فلم يَترَدَّدْ في شَدِّ الرِّحال إلى "البيضاء" لِمُمارسة مَهامِّه، في أُفُق أَرْحَب، وميْدان أَوْسَع، وبيئة أَكْثر قابلية لِلْحَرَكَة والنَّشاط، وأَكْثَر انْفِعالاً مع الدَّعوة والدُّعاة، وهُنا في "البيضاء" تَعرَّفْتُ على الشيخ الشَّاب، الذي مَاإنْ الْتقيْتُ به في الْمرَّة الأُولى - وكان ذلك في بيت الْمرحوم "الحاج محمد بوكاري" - حتَّى تَوثَّقتْ عُرَى الْمحَبَّـة والأُلْفَـة بيْننا،

وأَذْكُر أَنِّي بادرْتُـه بِهذا السُّؤال الذي أَحْرجَه بعْض الشَّيئ، قائلا: "إذاسمَحْتَ - ياأستاذ - فإنِّي راغِبٌ في أَنْ تدُلَّني على بعْض مَظاهر التَّشدُّد الذي بلغَني أَنَّك تصِمُني بِهافي بعض الْمجالس"، - وكان الأخ" البوكاري" رحمه اللـه قد أَخْبرني بذلك، - فارْتبَك وشعر ببعْض الْحَرَج، فجَعلَ يعْتذِر، فقلتُ: "لاتَثْريب عليكُم" والأَيَّـام ستَجْعلُنا نتَعرَّفُ على بعْضنا أَكْثر، ومَا هي إلاَّ أيام حتَّى اسْتدْعانا إلى بيته، وأَكْرمَنا، وزالَتِ الْحواجز والْغَبَـش الذي حَجبَ عنَّا الرُّؤيـة، فإذا نَحن إِخْوة مُتحابُّـون مُؤْتلِفون، ولا جَرم "فإنَّ الأَرْواح جُنودٌ مُجنَّدة، ماتَعارَف مِنْها إِئْتلَف، وما تَناكَر منها اختلف"[3].

اكْتشفْت في هذا الشيخ الشاب، أَدبا عاليا،وخُلُقا رفيعا، وتواضُعا جَمًّا، وحُبا لِلْعلم وأَهْله، وأَناة وتُـؤدة، ورِفقا وصَبرا على الْمطالعة والْبحْث، وخِفَّة ونشاطا، وحَركِية مُتميِّزة، اسْتطاع أَن يَستثْمِرها في البحْث العِلْمي، والنشاط الدَّعوي، والتَّنافُس الْمحْمود، في الْمجال التِّجاري والاقْتصادي، هذه الْخِلال الْحميدة، وهذا الْمسلك الْفَذ الرائع، زادتْـني تعلُّقا بالأستاذ "الصغيري" وأَكْسبتْني إعْجابا بشخْصِيته القَوية الْمؤثرة، فكُنتُ عندما أَخْلوا إلى نفْسِي، أتساءل عن الْمنْبِت الطَّيب، الذي أَنْتج هذه الثَّمَرة اليانعة، وأَقـول: لابد أَنَّ هناك منهجا تربويا ربَّانيا شُموليا، خرج هذا النموذج الفريد، وزال عُجبي عندما تعرَّفت على والد الشيخ

(3) الحديث في البخاري 3336 باب الأرواح جنود مجندة، ومسلم 6876 باب الأرواح جنود مجندة كلاهما من حديث أبي هريرة

في بيته، والتقيت به في مناسبات شَتَّى، إذ وجدته شيخا صالحا، وقورا مهيبا، ذا شخصية مؤثرة، يَزينُها العِلم، ويُجمِّلها لِباس التَّقوى، في صَرامة وجد، وقِلة فُضول، وإعْراض عن الأسفاف والدُّعابة والْمُزاح، مع سَمْت فريد، وتواضع وحياء وتعفُّف، فقلتُ في نَفْسي: "هذا الشِّبل من ذاك الأسد" وهذِه الثَّمرة اليانعة، مِن تلك الشَّجرة الباسقة، ﴿أَلَمْ تَر كيف ضربَ اللهُ مَثَلاً ، كلمة طيبة، كشجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، توتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون﴾(4) ﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، والذي خَبُث لايخرج إلا نَكِدا، كذلك نُصرِّف الايات لقوم يشكرون﴾(5)

وتَجلَّى لي الأمر أعظم التَّجلِّي، وأَدْركْت السِّر، عِندما مَنَّ الله علَيَّ بزيارة "سجلماسة" قاعدة "تافيلالت" فتعرَّفْتُ على قُرَّائِها وعُلَمائها، وطَلَبة الْعِلْم بها، ورأيتُ كيف يُجلُّ طَلبة "تافليلالت" وعوامُّها شُيوخهم، فإنَّ أَحَدَهُم لايُخاطِب الشَّيخ الْمُدرِّس إلاَّبقوله: "سيدي" حتى صارت "سيدي" عَلَماً بالغَلَبة على أَكْبر شُيوخ "تافيلالت" القَيِّم على "مدرسة تاغنجاوت"(6) ودُهِشت للْحَفاوة والإكْرام التي قابَلَني بِها أهْل "سجلماسة" خاصة شيوخها، إذ أَبَوْا إلاَّ أنْ يُلازموني ويرافقوني في تنقُّلاتي، وحين دُعيتُ لإلْقاء مُحاضرة في ؛ دارالشباب" ب"الرِّيصاني" كان شيخ "تاغنجاوت" "سيدي" ووالد الأستاذ الصغيري في مقدمة الْحضور،

وخُلاصة القول: فقد تأكَّد لي أنَّ القُرَّاء وطَلَبة العلم في"سجلماسة" مُتميِّزون في سَمْتهم، وأخْلاقهم، وسُلوكِهم، وأنَّ الاستقامة، والصَّلاح، والْجِد، والصَّرامة، هي السِّمات البارزة لَدَى عُمومِهم، على تفاوت بينهم في ذلك، ولقد قارنتُهُم بنُظَرائِهم في الشمال والجنوب، فبدا أنَّهم اخْتصُّوا بِمزايا وقِيَم لايشاركهم فيها غيرهم.

---

(4) سورة إبراهيم الآية 26 و27

(5) سورة الأعراف الآية 57

(6) تاغنجاوت : إسم لقصر من قصور تافيلالت ،يوجد بجماعة "وادي المالح" يبعد عن مدينة "الريصاني" بحوالي 4 كلم، وعن المدار السياحي التاريخي: "القواس" بحوالي 2 كلم ، وبه مدرسة عتيقة لتحفيظ القرآن الكريم ، يشرف عليها : الشيخ خالدي "سيدي" حفظ علي يديه القرآن آلاف الطلبة من كل أنحاء المغرب، ونفع الله به أجيالا من أهل القرآن، متع الله بحياته القرآن وأهله، ونفعنا ببركاته ودعواته.

أهمية الاهتمام بالتاريخ:

والعِناية بالتاريخ، وتسجيل السير الذاتية، وتقْييد الْحوادث، وضبط الوقائع، أُمُور ينبغي أن تَحْظى بالأولوية، وتُبذل فيها الطاقات، وتُسْتنفَد فيها الْجُهود، وتصرف إليها الْهِمَم، وتُستثْمر فيها الأوقات، فذلك مِما يَخدم الدِّين، والْقِيَم والْمُثُل، ويدعُو الشَّباب إلى الائتساء والاقتداء بسِيَر العُظماء، والأبْطال والعُلماء والصُّلَحاء، والقادة والْمُفكِّرين، فهذا كتاب الله يُشِيد بالتاريخ، ويُنوِّه بالقَصص، ويَروي قَصص الأنبياء، والصُّلحاء ، والْحُكماء، والْمُلوك، والْجبابرة، ويَعْرض مصارع الْمُكذبين، ويدعو إلى اسْتخلاص العِبَر، من الْحوادث والْمَثُلات، التي حاقت بالأُمم الغابرة، مثل "عاد" و"ثمود"، و"قوم لوط"، و"أصحاب الأيكة".

وكفى علم التاريخ شرفا وحظوة، أَنَّ الله تعالى أَورَد فيه مادة دسمة، شغل بِها حَيِّزا كبيرا مِن كتابه الكريم، الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فبالإضافة إلى قصص الأنبياء والْمرسلين، يعرض قِصة "أصحاب الكهف" و"أصحاب الأُخدود" و"الحكيم لُقمان" والأمبراطور "ذي القرنين" وملحمة "طالوت" و"داود" مع الطاغية "جالوت"، وأوردَ ذلك في معرض الامتنان على نبيه صلوات الله وسلامه عليه، واعْتبَر ذلك من جملة النِّعم التي أسبغها عليه، كما قال ربُّنا جلَّ شأنه: ﴿تلك القُرى نَقُص عليك من أنبائها﴾[7] وقال جَلَّ علاه ﴿لقد كان في قَصَصِهم عِبرة لأُولي الألباب، ماكان حديثا يُفتَرَى، ولكن تَصْديق الذي بين يديه، وتفصيل كُل شيئ، وهُدى ورحمة لقوم يومنون﴾[8] وقال سبحانه ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق، إنهم فتية ءامنوا بربهم وزدناهم هدى﴾[9]

والتربية بالتاريخ والقِصة، منْهَج واضح في السُّنة النبوية، عَجَّت به كُتب الْحديث، واشتملت على كثير منها دواوين السُّنة، كحديث "أَصْحاب الغار"[10]

(7) الأعراف ءاية 101

(8) يوسف ءاية 111

(9) الكهف ءاية 12

(10) حديثهم في البخاري 3465 باب حديث الغار، ومسلم 7125 باب قصة أصحاب الغار

وقصة "الأَعْمى والأَقْرع والأَبْرص"[11] وحديث "أُمِّ زرع"[12]، وسوى ذلك كثير، قال العلاَّمة الناصري في "الاستقصا" "وكتاب "بدْء الخلق" في صحيح البخاري كفيل بِهذا الشَّأْن وآتٍ من القَدْر الْمُهِمِّ منه، بما يُبْرد غلة العطشان"[13]،

وقد احْتجَّ القرآن الكريم على أَهْلِ الكِتابين : "اليهود" و"النصارى" بالتاريخ، فأفْحَمهُم قائلا: ﴿ياأهل الكتاب لِمَ تُحاجُّون في إبراهيم، وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده، أفلا تعقلون﴾[14] وإذا تَبيَّن لك هذا، عرفتَ أنَّ الْمقولة الْمُبتذَلة في:"أنَّ عِلْم التاريخ أو الأَنْساب عِلْم لايَنفع، وجَهالة لاتضر"، مَقُولة شَنيعة، تَدُل على جَهْل صاحِبِها، وتكْشف عَواره، وأنكَر العلاَّمة: "ابن حزم" أن تكون مَروية عن الرسول، ورَدَّ ذلك بِحُجَج قاطعة، وكَيف يُروَى هذا الْهُراء؟ وعِلْم تاريخ الرجال، هو عُمْدة الْمُحدِّثين في التَّصحيح والتَّضعيف، والْجَرح والتَّعديل، والْمُعاصرة واللقاء والسَّماع، ولولا التاريخ ماعَرفنا الناسخ والْمنسوخ، ولا المتقدم من المتأخر،

وقال الناصري رحمه الله، مُعقبا على قول الشافعي: "دأَبتُ على قراءة عِلْم التاريخ كذا وكذا سنة، وما قرأْتُه إلاَّ لأستعين به على عِلْم الفقه": "إنَّ عِلْم التاريخ لَمَّا كان مُطْلِعاً على أَحْوال الأُمم والأجيال، ومُفْصِحا عن عوائد الْمُلوك والأَقْيال، مُبيِّنا مِن أعْراف الناس وأَزْيائِهِم ونِحَلهم وأَدْيانِهم، مافيه عِبْرة لِمن اعْتبر، وحِكْمة بالغة لِمن تَدبَّر وافْتكَر، كان مُعينا على الْفقْه ولابُد، وذلك أَنَّ جُل الأَحْكام الشَّرعية مَبنِية على الْعُرف، وما كان مَبنِيا على العُرف، لابُد أنْ يطَّرد باطِّراده، وينْعكِس بانْعِكاسِه، ولِهذا نَرى فتاوى الفقهاء تَختلف باخْتلاف الأَعْصار والأَقطار، بل والأَشخاص والأَحْوال، وهذا السَّبب بعَينه هو السِّر في اختلاف شرائع الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام وتباينها، حتى جاء "موسى" بشرع، و"عيسى" بآخر، و"محمد" بسِوَى ذلك، صلى الله على جميعهم وسلم[15].

---

(11) جديثهم في البخاري 3464 باب جديث أبرص وأعمى وأقرع ومسلم 7620

(12) حديث أم زرع في البخاري 5189 باب حسن المعاشرة، ومسلم ، 6458 باب ذكر حديث أم زرع.

(13) مقدمة الاستقصا

(14) ءال عمران ءاية 65

(15) مقدمة الاستقصا

وأورد "السيوطي" من فوائد التاريخ: واقعة رئيس الرؤساء، وزير القائم بأمر الله العباسي "علي بن الحسين" الْمعروف ب "ابن الْمسلمة" الْمشهورة مع اليهود ببغداد، وحاصلها: أنَّهم أظْهروا رسْما قديما، أمَرَ بإسْقاط الْجِزيةعن يهود خَيبَر، وفيه شهادة جَماعة من الصحابة، منهم: "علي بن أبي طالب" رضي الله عنه، فرُفِع الرَّسم إلى رئيس الرُّؤساء، وعَظُمت حيرة الناس في شأنه، ثُمَّ عُرِض على الْحافظ أَبي بكْر "الْخطيب البغدادي" فتأمَّله وقال: هذا مُزوَّر، فقيل له: بِم عرفته؟ قال:فيه شهادة "معاوية" وهو إنَّما أَسْلم عام الفتح، سنة 8 من الهجرة، و"خيبر" فتحت سنة سبع للهجرة، وفيه شهادة "سعد بن معاذ" وهو مات يوم "بني قريظة" وذلك قبل فتح "خيبر" فسُرَّ الناس بذلك، وزالت حيرتُهم.

واقعة أخرى شبيهة:

ونقل العلامة: أحْمد بين خالد الناصري، عن الأديب "أبي عبد الله الْيَفْرَني الْمشهور بالصغير، قال: "جرى بِمجلس شيخنا قاضي الجماعة، فلان الفلاني، - يعني به العلامة، أحمد بن محمد بن ناجي، السجلماسي - ذِكْرُ عِلْم التاريخ، فقال: "إنَّ عِلْم التاريخ، يَضُر جهْله، وتَنفَع معْرفَتُه، لاكما قيل: "إنَّه عِلْم لاينْفَع، وجَهالَة لاتَضُر" قال: وانظر ماوقع في هذا الوقت، في حدود عشرومائة وألف، 1110 للهجرة، - 1698 م، مِن أنَّ نَفَرا مِن يهود "فاس الجديد" امْتنَعوا مِن أَداء الْجِزية، وأَخْرجوا ظَهيرا قديما، مُضمَّنه : أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم، عَقدَ لِموسى بن حُيَيْ بن أَخْطب، أَخي "صفية بنت حُيَي، أُمِّ المؤمنين رضي الله عنها، ولأَهل بيت "صفية" الأمان، لايَطأُ أرضَهُم جَيشٌ، ولا عليهم نُزُلٌ، ولهم ربْط العَمائِم، فعلى مَن أَحبَّ الله ورسوله أَنْ يُؤمِّنَهُم". وكتب: "علي بن أبي طالب" و"شهيد عتيق ابن أبي قحافة" و"عبد الرحمن بن عوف" و"معاوية بن أبي سفيان" وشهادتُهم في ذي القعدة، سنة تسع من الهجرة، - يبراير631 م - قال شيخنا: - والقائل الْيَفْرني - وشيخه: هو ابن ناجي - فظهر لي ولعلماء العصر، أَنَّ ذلك زُور وافْتِراء، لاشَك فيه ولا امْتِرا، لأنَّ التاريخ بالْهجرة، إنما حدَث زَمن عُمر، سنة سبع عشرة، 17 هـ 638م، لأَسْباب اقْتضَت ذلك، ولأنَّ أَهْل التاريخ، لم يذكروا ل "صفية" أخا اسمه موسى،

والثابت الْمروي، أَنَّه عليه الصلاة والسلام، قَتل أباصفية وزوجها، ولأَنَّ الظهير الذي اسْتظْهروا به، نُسخة مِن الأَصل الذي فيه خُطوط الصحابة، وقد أَرَّخوا الاسْتِنْساخ من الأَصْل، بسَنة ثلاث وعشرين وسبعمائة- 723 هـ 1323 م - فقد تأَخَّر خطُّ الصحابة بزعْمهِم إلى الْمائة الثامنة، - المائة الرابعة عشرة - وكيف يتوصل في المائة الثامنة، إلى أنَّ ذلك خط الصحابة؟ هذا خُلاصة ماكَتبَه أهْل "فاس" في إبْطال الظَّهير، ولَمَّا رُفع ذلك إلى السُّلطان "الْموْلى إسماعيل" رحمه الله، عاقب اليهود عقابا شديدا. أهـ

وحتَّى نعرف الْمَكانة العِلْمية لِمن أَبْطل هذا الظهير، وهو العلاَّمة ابْن ناجي، فلْنقرأ ماكتبه عنه العلاَّمة أَبوا العباس الفاسي، في"فهرسته "قال: ومنهم شيخنا الفقيه العلامة، سيدي أحمد بن محمد بن ناجي،السجلماسي، تَولَّى القضاء ب"سلا" و"الرباط" ونواحيهما وبقي متوليا بِهما نَحو العشرين سنة، ثم تولى القضاء ب "فاس" ثم ب "مكناسة الزيتون" حضرنا عليه في تفسير "القرآن العظيم"، وفي "رسالة ابن أبي زيد" وذلك بمحروسة "سلا" و"صحيح البخاري" و"صحيح مسلم بن الْحجَّاج" وقرأت عليه "شمائل الترمذي" وكان رحمه الله مُعظِّما لجميع من يَنتَسِب للطلب، وقورا، ذا تؤدة، وهِمَّة عالية، وكَلِمة نافذة عند السلطان وغيره، توفي رحمه الله بمحروسة "مكناس" يوم الجمعة 24 من رجب، 1112 هـ 30 يونيو1711 م - ودفن دا خل الْمدينة المذكورة، بروضة "السيدة عائشة العدوية"

ومما يَحْسُن إيراده هنا: أبيات "ابن الخطيب لسان الدين" وزير "غرناطة"

وبعْد فالتَّاريخُ والأخْبارُ	فِيهِ لِنفْسِ الْعاقِلِ اعْتِبارُ
وَفِيهِ لِلْمُسْتبْصِرِ اسْتِبْصارُ	كَيْفَ أَتَى الْقَوْمُ وَكَيفَ صَارُوا
يَجْرِي عَلَى الْحَاضِرِ حُكْم الْغائِبِ	فَيُثْبِتُ الْحَقَّ بِسهْمٍ صَائِبِ
وَيَنْظُرُ الدُّنْيا بِعَيْنِ النُّبْلِ	وَيَتْرُكُ الْجَهْلَ لأَهْلِ الْجَهْلِ

وهي من أرجوزته في التاريخ، المسماة: "رقم الحلل في نظم الدول" طبعت في "تونس" سنة 1316 هـ 1898 م وقد أنشد الناصري لبعضهم:

لَـيْـسَ بِـإِنْـسَـانٍ وَلاَ عَـاقِـلِ	مَـن لاَيَعِي التَّـارِيخَ فِي صَدْرِهِ
وَمَـنْ رَوَى أَخْبار مَـنْ قَدْ مَضَى	أَضَـافَ أَعْـمَـارًا إِلَـى عُـمْـرِهِ

التنويه بعمل الأستاذ الصغيري:

هذا وما قام به الأستاذ محمد الصغيري، عَمَل جَليل مَشْكُور،وسَعْي مَحْمود مَبْرور، ليس لأنَّـه أدَّى به بعْض الْحق لشَيخِه ووالده فحَسْب، بل إنَّـه افْتَتَح صفْحةفي تاريخ "سجلماسة"، يُرجَى أَنْ تكون حافِزا له عَلى مُواصَلة الْجهد، حَتى تَحقيق الغاية، ولَرُبَّما نافَسه بعض أَهْل الْعِلم من أَبناء الْمنطقة، فَكَشفُوا لنا عن كُنُوزِها، وعرَّفُونا بِنُبَغائِها وأَعْلاَمها، والْحَق أَقول: لَو أَنَّ عُلماء كُل مَنطَقَة، وأُدباءَها ومُثَقَّفيها، عُنُوا بِإقْليمِهِم وناحِيتهِم، فعرفوا بِأَعْيانِهم وعُلَمائهم، ورِجال الفِكر والدَّعوة فيهم، عَلَى غِرار مافَعَله العَلاَّمة الأُستاذ "محمد الْمختار السوسي" في كُتُبه، مِن أَمثال "الْمعْسول" و"سوس العالِمة" و"إِليغ قديما وحديثا"، وغيرها من آثارها النـافعة، لكان لدينا عن كُل منْطقة سِجِلٌّ حافل، ولَنشأَ عن ذلك بالضَّرورة، مَوْسوعة حَافلة مُتناسِقة، مُتَّصلة الْحلَقات، في تاريخ الْمغرب، والإنجاز الحضاري للمغاربة، وكانت هُناك مُحاولات في هذا الصَّدد، وأَبْحاث فيها بعض الغَناء، لكنَّهامازالَت بِحاجة إلى تَرمِيم، مِن قبيل: "آسفي وماإليه" و"إيقاظ السريرة في تاريخ الصَّويرة"، وظَهرتْ حديثا كتابات لِطَلبة بعْض الْمدارس الْعتيقة، نَسجَتْ عَلى هَذا الْمِنوال، فكَتَب الأُستاذ "أيت بومهاوت" السوسي، عن مدرسة "تافراوت الْمولود" شيوخها وخريجيها، مُجليا الْمنهج التَّقليدي للمدارس العتيقة ب "سوس"، وكَتَب الفقيه "إد ابراهيم" التامري الحاحي: "الْمتعة والراحة في تراجِم نُبغاء حاحة" وكتب الفقيه النَّابغة "محمد ألوح": "إتحاف نبلاء الساحة بآثار فضلاء حاحة"،

وإنِّي لأَسْتحِثُّ طَلبَة الْعِلم، والْمُثقَّفيـن مِن جَميع أَطْراف الْمغرب وأَصْقاعه، وأَسْتثِير هِمَمَهُم، أَن ينحو هذا النحو، ويَسلُكُوا هذا الْمسلك، لا لِيُؤدُّوا بعض الْحق لِمن مَضوا وغَبَروا، وفنوا وانْدثَروا، مِن الآباء والأجداد فحَسْب، بل ليعرفوا بالنُّبغاء مِن الْمعاصرين الأحياء، فهُم عَدد وفِير، وجَمع غزير، في كُل حواضر الْمغرب، وريفه وبواديه، وإنَّ في أَعْناقِنا لتبعات جلى، ومسؤوليات عُظْمى، تُجاه

الذين ساهموا في رفْع الصرح الحضاري لِهذا الوطن، وشاركوا في تَنشِيط حركة العِلْم، والفكر والإبداع فيه، ثُمَّ طواهم النسيان، وعَفَى عليهم الدَّهر، فلم يَسمع بهم أَحَد، فأيُّ عقوق وجفاء وقَطِيعة مِن الأبناء والأَحْفاد، تجاه الآباء والأجْداد، أَسْوأ مِن هذا العُقُوق؟ وأَيُّ إفْسادٍ في الأرض يُضاهِيه هذا الإفْساد؟ ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تُفسدوا في الارض وتُقطعوا أرحامكم﴾[16]

والْعِلْمُ رَحِم بَيْن أهْله، فَهل بسلوكِنا الشَّنيع، وإهْمالنا هذا الكون، قد وصَلْنا هذا الرحم؟ اللهم لا، وتعُجُّ كُبْريات مُدُن الْمغرب، مثل: "الدار البيضا" و"فاس" و"مراكش" و"أكادي" بِحُشود من العُلماء والأُدَباء والْمُفكِّرين، وهم مادة دسِمة، للنُّشَطاء مِن الباحِثِين الْمشتغلين، أو الراغبين في إعْداد شهادة الْماجستير والدكتوراة، ولكِنْ أَين الْهِمم؟ فقد كان العلاَّمة "ابن خلدون" رحمه الله، يُعلِّلُ نُدرة إنْتاج عُلماء الْمغرب وضحالته، بالمقارنة بنظيره لدى علماء الشَّرق العربي، بانقطاع السند، وضعف الْمنهجية لدى المغاربة، فما الذي أَخَّرهم عن الركب الآن، وقد توفَّرت لَهم الجامعات الضَّخمة، والْمعاهد العُليا، في كُل التَّخصُّصات تقريبا؟ لاشيء غير إيثار الدَّعة والراحة، والإهمال واللامبالاة، حتى انعكَسَت في أَذْهان إخْوتنا علماء الشرق، صورة باهتة، عن النَّهضة العِلمية في قُطْرنا العزيز، أَعْني "المغرب الأقصى"

وقد زار المغرب في صيف العام الماضي - 1429 هـ 2008 م - علماء من الخليج العربي، فسألوا من دلَّهم عَلَي، فزاروني في بيتي، واسْتغْربتُ لَما فاجأني أحَدهم بقوله : "لَم نَجد في الْمغرب علماء مُتخصِّصِين في الدِّراسات الشَّرعية"، ثُم استدرك : "ولاعجب، فإن البيئة غير مُؤهَّلة لذلك، أحْرجَتني عبارته الْخشِنة، وساءني قوله، لكِنِّي بادرْتُه بقولي: لقد كان وفد علماء المغرب، في المؤتمر الثاني، لاتِّحاد علماء المسلمين، المنعقد في عاصمة الخلافة العثمانية "اسطنبول" ب "تركيا" منذ سنتين، - 1426 هـ 2007 م - في الدرجة الثانية، من حيث العدد والفعالية، بعد

(16) سورة محمد الآية 23

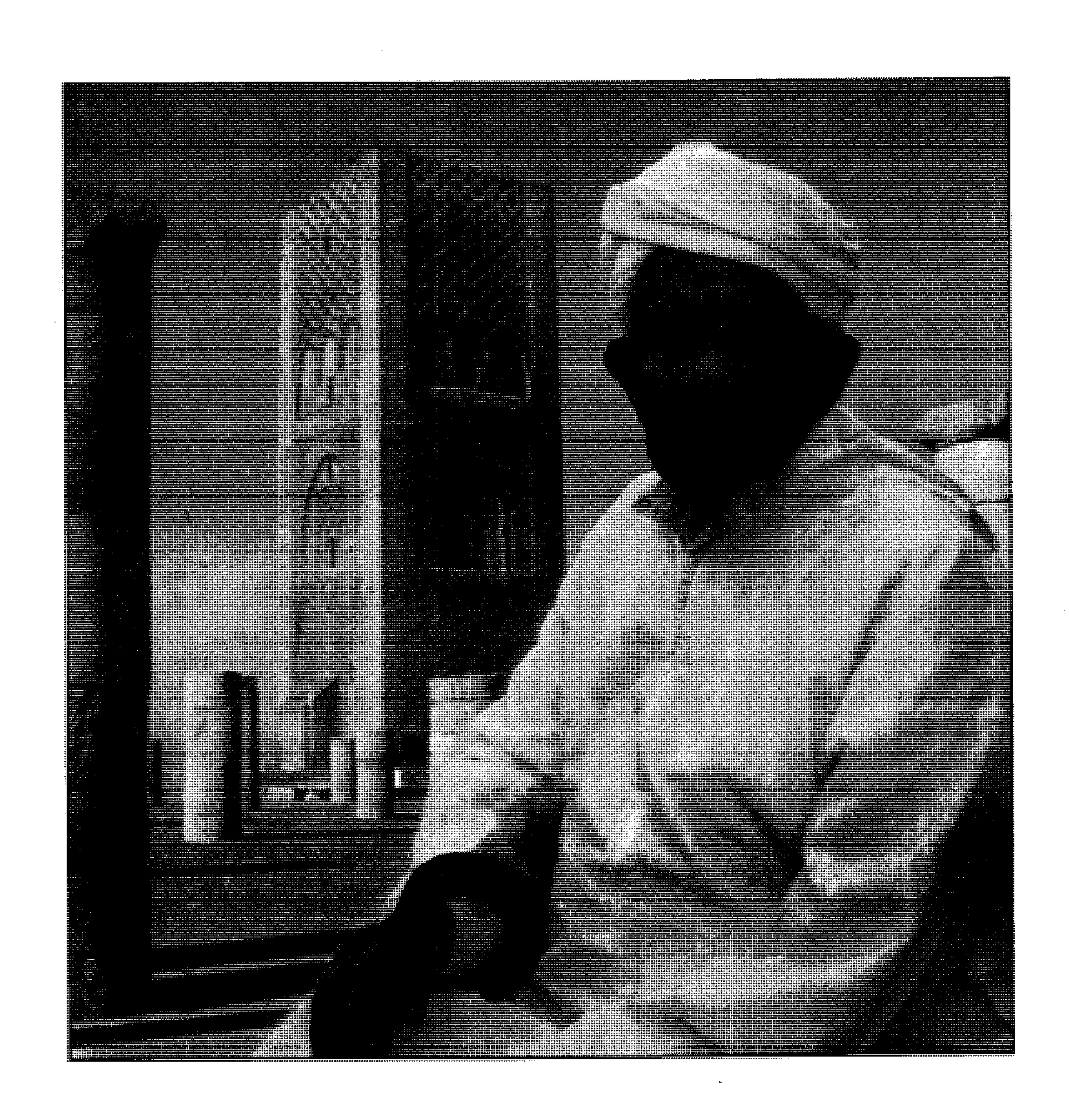
الوفد المصري، أحْسسْتُ من نفسي أنَّ دفاعي هذا مُتهالك، مبني على التَّحكُّم والْمعاندة، ولكن لابد من حِفْظ ماء الوجه، كما قال الطائي "أبوتمام":

وَما أُبالِي وَخَيْرُ الْقوْلِ أَصْدَقُهُ حَقَنْتَ لِي مَاءَ وجْهِي أَوْ حَقَنْتَ دَمي

وهذا ماتيسَّر إيرادُه في هذه العُجالة، والْمقام مقام الإيجازوالاخْتصار، وليس مقام البسط الإطناب، ﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾.

وكتبه الفقير إلى عفو الله:

محمد أحمد زحل
عفا الله عنه



مقـدمـة

الحمد للَّه الواحد القهَّار، العزيز الغفَّار، مقدِّر الأقدار، مصرِّف الأمور، مُكوِّر الليل على النهار، تبصرةً لأُولي القلوب والأبصار، الذي أيـقظ من خلقه من اصطفاه فأدخله في جملة الأخيار، ووفّـَق من اجتباه من عبيده فجعلَـه من المقرَّبين الأبرار، وبصَّرَ من أحبَّه فزهَّـدهم في هذه الدار، فاجتهـدوا في مرضاته والتأهُّب لدار القرار، واجتناب ما يُسخطـه والحذر من عذاب النار، وأخذوا أنفسهـم بالجدِّ في طاعتـه وملازمة ذكره بالعشيّ والإبكـار، وعند تغاير الأحوال، وجميع آناء الليل والنهار، فاستنارت قلوبُهم بلوامـع الأنوار، أحمـده أبلغَ الحمد على جميع نعمـه، وأسألُـه المزيد من فضلـه وكرمـه. وأشهد أن لا إلـه إلاّ اللّـه العظيم، الواحد الصمد العزيز الحكيم؛ وأشهـد أن محمداً عبدُه ورسوله، وصفيُّـه وحبيبه وخليلـه، أفضلُ المخلوقيـن، وأكرمُ السابقيـن واللاحقيـن، صلواتُ اللّـه وسلامه عليـه وعلى سائر النبيين، وآل كلٍّ وسائر الصالحيـن[17].

وبعـــد :

أقـدم إليك أخي القارئ في هـذه الرسالة، نبذة عن حياة شخصية مُتميزة، من أعلام هذه الأمـة، عاش في القرن– الرابع عشرهـ – العشرين م ـ قرن الفتـن والمتناقضات، لتعلم أن الخيـرية في هذه الأمـة لا تَـموت، وأن الصلاح فيها لاينقطع، ما بقي الليل والنهار، مصداقالقول رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم من حـديث ثـوبـان رضـي اللـه عنـه : "لاتـزال طـائفـة مـن أمتي ظاهـرين على الحـق، لايضرهـم من خذلَهـم حتى يأتي أمر اللـه، وهـم كذلك"[18].

---

(17) مطلع كتاب: "حليَة الأبرار وشعار الأخيار في تلخيص الدعوات والأذكار المُستحبة في الليل والنهارِ"، للإمام أبي زَكريا يحي بن شرف النووي، (631 - 676 هـ).

(18) صحيح مسلم، من حديث ثوبان (رقم 5059)، وصحيح الجامع الصغير الجزء 2 ص 1219

هـذا الرجل أسهـم في بناء أجيال من أبناء هذه الأمـة، هم نماذج طيبـة، في سلوكهـم وأخلاقهم، ومعهـم نصيب من العلـم، يُهدون به الضال، ويَرشدون الحائر، وأسهـم بعلمه ودعوتـه في إحياء السنة، وإماتـة البدعـة، وأسهم بصلاحه في تثبيت القيـم الفاضلة، وإرْساء قـواعدهـا، وأسـهـم بأدعيته التي كـانت ولاتـزال تُـجلب بأمثالها الخيرات، وتُـدفع الشرور والمضرات، "لولا عبادٌ لله رُكّـع، وصِبية رُضّع، وبَهائم رُتّـع، لصب عليكم العذاب صبا، ثم رُصّ رصا"[19]، "ولم يَمنعوا الزكاة إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا"[20]

هـذا الرجل عالِم من علماء القرويِّيـن، أتقن علوما عدة، وفنونا مختلفة، له السبق في علوم الفقه والنحو والصرف، مقصد الناس في النوازل والفتوى، رباني زمانه، من أهل الصلاح والتقـوى، وهب حياته للعلم ونشره، وتفرغ للعبادة وإصلاح نفسه.

أُقـدِّم إليك هذا الرجل الذى عاش "بسجلماسة"[21]، أرضِ العلم والحضارة، سبقتْ في ذلك "فاس"، و"مراكش"، و"مكناس"، و"البيضاء"[22]، هـذه الأرض التي

---

(19) حديث روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث مسافع الديلمي، أنظر ضعيف الجامع الصغير، ص 701

(20) المستدرك على الصحيحين 8772 – شعب الإيمان 3163.

(21) تقـع "سجلماسة" بالجنوب الشرقي للمغرب، وسط واحة كبيرة جنوب الأطلس الكبير، يَخترقـها نَهرا "اغريس" و"زيز"، لم يتبق منها الآن إلا موقـع أثري يضم آثارا وخـربا وأطلالا، قرب مدينـة "الريصاني"، بتافيلالت، تعتبر "سجلماسة" ثاني مدينـة إسلامية تشيد بالغرب الإسلامي، بعد "القيـروان"، وهـي عاصمة أول دولـة مغربيـة مستقلة عن الخلافـة بالْمشرق، والْمتمثلـة في إمارة "بـني مدرار". وقد أجْمعت بعض الْمصادر التاريخيـة أن "سجلماسة" بُـنيت سنـة 140هـ/757م، وقد أهَّلها موقـعها الاستراتيجي لتكون صلـة وصل أساسية بين مُختلف مناطق شمال إفريقيـا وبـلاد السودان الغربي من جهة، والمشرق الإسلامي من جهـة ثانيـة، وقـد تَحكمت "سجلماسة" لمدة طويلة في تِجارة القوافل، وقامت بأدوار مـهمة في تنظيم شبكـتها، الشيء الذي جـعل اسْمها يرتبط بالكتابات التاريخيـة، اقتصاديا بتجارة الذهـب، وثـقافيا بالتأثـير الذي أحدثـته في بناء حضارة عربيـة وإسلاميـة بإفريقيا، جنوب الصحراء.

(22) قال الأستاذ أبو العلاء إدريس بن أحمد الفضيلي عن سجلماسة : "ان مدينتها العظمى قاعدة بلاد المغرب قبل فاس .... قد عمرت قبل حلول الأدارسة الحسنيين بهذا القطر المغرب، بقريب من أربعين سنة، وذلك عام 140 م و لم يتقدم لأهلهـا كفر، و لم تزل من ذلك الوقت عـامرة آهلة =

أعطت مثل: "أحمد بن امبارك اللمطي السجلماسي" [ت1156 هـ]، وتلميذه "أبي العباس أحمد بن عبدالعزيزالهلالي" (ت 1175هـ)، و"أحمدالحبيب اللمطي" (ت1165هـ). وإبراهيم بن هلال بن علي السجلماسي [ت 903 هـ] وأبي محمد القاسم بن محمد بن عبد العزيز السجلماسي، والشيخ أحمدبن محمد بن مروان التجمعتي السجلماسي [ت 1083 هـ]

أَقامُوا بظهْر الأَرض فاخْضَر عُودُها   وصارُوا ببطن الأرض فاسْتوحَشَ الظهر

والتي أنجبت العديد من الأئمة والخطباء والمدرسين، انتشروا في مُختلف مُدُن المغرب وقراه ، تميزوا بعطائهم وسَمْتهم وأخلاقهم،

ومَا شَرَفُ الأَوطَان إلاَّ رِجالُها   وإلاَّ فَلاَ فَضْلَ لِتُرْبٍ عَلى تُرْبِ

أُقدِّم سيرة هذا الرجل، لأُزيل به غُيوما خيَّمَت على المنطقة مُنذ زمان، وهو أن أبناءها، جفَّت أقْلامُهم عن الكتابة عن رجالِها، والذين أعْطوا الكثير في العِلْم والتَّربية، والقِيم والفضائل، فبمجرَّد ما يَموت الواحد منهُم، تنقطع آثارُه، وتُنسى أخباره، وكأنه ماوطئ الأرض، ولاقدم لأهلها خيرا، إلاَّ ما يبقى من حديث عن عِلْمهِم وصلاحهم على ألْسنة الناس، سُرعان ماينْقضي بانْقضائهم، ويُنسى بنسْيانِهم، أمَّا أن تُدوَّن آثارهم، وتُكتب أخبارهم، وتُوثَّق حياتُهم، فهذا لا يُوجد في هذِهِ العُصُور الأخيرة، فيما أعْلم، وحتَّى إنْ كان فهُو قليل[23].

= بالعلماء والصلحاء والأخيار، وهي أول بلاد درس العلم بها بالمغرب، وذلك قبل نزول الأشراف بها، وأما بعد حلولهم بها، فلا تجد قصرا من قصورها، ولا مدينة من مدنها، ولا قرية من قراها، إلا وفيه من العلماء والصلحاء، وأهل الفضل، وطلبة العلم والقراء، مالا يحصى كثرة، ولا ينحصر بعَد، والغالب على أهلها التواضَع، والسكينة والوقار، وطلب العلم والأدب، ولهم اليد الطولى في تجويد القرآن، ومخارج الحروف، وقراءة الروايات من السبع، إلى ما بعده، والتفنن في سائر العلوم، أما الفقه وأحكام القضاء، فلا يجاريهم أحد فيه ولا يباريهم، حتى كانت القضايا ترفع إليهم من سائر أقطار المغرب، وكانت ولا زالت بها بيوت عظيمة، مشهورة بالولاية والعلم والدين. الدرر البهية ج1 ص96، طبع وزارة الأوقاف المغربية.

(23) ذكر أخي الأستاذ الفاضل: "محمد العمراوي" أن له كتابا حافلا أسماه "المعجم الوجيز في تراجم نُخبة من علماء سجلماسة ووادي زيز". غير مطبوع.

وحسْبي بهذ ه الرِّسالة أنْ أكْسِر بها جِدارا، وأقْطع بها حَواجز، حالتْ دُون الكِتابة عنْ عُلمائنا ومُصلحِينا، ولعلَّها تُوقظُ النَّائم، وتُذكِّر الغَافل.

في القرن الرابع عشر هـ ـ العشرين م ـ، وُجد رجال ب "سجلماسة"[24]، وهبُوا حياتَهم للْعِلم ونشْره، كالعالم الرَّباني "ابن الشيخ"، والعالم الْموسوعي السيد "عبد الرحمن الهواري"، والعالم – بركة العصر – الذي نفع الله بعِلْمه القاصي والداني، "السيد المدني"، والعالم المجود "ابن الحنفي"، والعالم المتّزن السيد "الحبيب المعضاضي"، والجامع لنفائس الكُتُب السيد "عبد السلام الأخنوسي"، هؤلاء وأمثالهم لم يَكتُب عنهم أحدٌ فيما أعلم[25]، مع أن تلامذتَهم مُنتشرون في كُل مناطق المملكة، مُدُنها وقراها، ويتقلَّدون مناصب سامية، في قطاعات متعددة، وفي المقابل نرى أهْل الْحفْريات والآثار، يَجدُّون ويبْحثون ويُواصلون، ـ وهُم يُشكرون على ذلك[26]، ـ كما نرى أيضا أصحاب الفنون الموسيقية والمديح، ينبشون في تاريخ سجلماسة عن أسماء رجالهم البارزين، ويُحيون آثارهم وأشعارهم وقصائدهم، وفي كل مرة يفاجؤونا باكتشاف جديد عن آثار سجلماسة، فهل الخزف والنقوش أشرف من العلماء والمصلحين، وهل الأبراج والأسوار أنفع للأمة من علمائها؟ [27]، وهل الموسيقى أهدى للأجيال من دعاتها؟ أما أهل العلم والثقافة، فقد أخلوا بواجبهم، وأضاعوا مسؤولياتهم، وناموا نومة أهل الكهف.

---

(24) سجلماسة: بكسر السين المهملة، والجيم، وسكون اللام، وفتح الميم، والف، وسين ثانية، وهاء. من خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي.

(25) كتب عنهم الاستاذ العمراوى في كتابه الذي سبقت الاشارة إليه

(26) لِمعرفة تفاصيل أكثر عن "سجلماسة" ودوها الثقافي والحضاري في جنوب المغرب، ينظر: "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، لابن فضل الله العمري، و "مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الْهجري، منتصف الحادي عشر الميلادي" لهاشم القاسمي، و"سجلماسة كمحطة للتواصل الحضاري بين ضفتي الصحراء" لحسن توشيخت، و"الروض الْمعطار في خبر الأقطار" للحميري ص 503 ومعجم البلدان، ج2 ص433

(27) رغبةً في معرفة المزيد عن الدور الثقافي والحضاري ل "سجلماسة،، نشطت مجموعة من البعثات العلمية، بقصد التنقيب والاستكشاف، ومن هاته البعثات نذكر: =

إليك أخي الْمثقَّف، الغيور على بلده وأُمَّته، أُقدِّم هذه الرِّسالة، لتُسْهم بدورك بقليل أوكَثير، في بناء هذا الصَّرْح التاريخى، الْمُترامى الأطْراف، ولتَتْرك للأجْيال اللاَّحقة لبِناتٍ تعتمد عليها في مُواصلة البناء، "لاتَحْقِرنَّ من الْمعْروف شيئا ولو أن تلْقَى أخاك بوجْه طلْق"(28)

أقدم هاذه الرسالة، بين يديك أخي القارئ، مُعَرِّفاً بسيرة والدي، العلامة " الحاج محمد بن العربي الصغيري"، وفاء لـمن سهر وربى، وعلَّم وزكَّى، وقياما بواجب البِر الذي حَمَلني على تحرير هاته الرسالة وتَحبيرها، ورجاء الأجر والثواب من ربي، والإسهام في بناء صرح أمتي، والفوز بنصح إخواني وأخواتى من أهل العلم والمعرفة، الذين أتشرف بتوجيهاتهم وأسعد باقتراحاتهم وتصويباتهم:

يـاناظِرا فِيمَا أَعْدَدتُ لِجَمْعِهِ ... أُعْذُرْ فإنَّ أَخَا الْبَصِيَرةِ يَعْذُرُ
وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْمَرْءَ لَوْ بَلَغَ الْمَدَى ... فِي الْعُمْرِ لاقَى الْمَوْتَ وَهوَ مُقَصِّرُ

وَمَا كُنْتُ أَهْلاً لِلذِي قَدْ كَتبْتُهُ ... وإنِّي لَفِي خَوْفٍ مِنَ اللَّهِ نَادِمُ
ولَكِنَّنِي أَرْجُو مِنَ اللَّهِ عَفْوَه ... وإنِّي لأَهْلِ الْعِلْمِ لاَشَكَّ خَادِمُ

= – البعثة الإيطالية: فقد نظمت مؤسسة The Ludwig Keimer تحت إشراف de Rachewiltz Boris بعثتين إلى تافيلالت: الأولى أثرية، من 19 مايو إلى 3 يوليو 1971، والثانية إثنولوجية، من 28 مارس إلى 7 مايو 1972. برمجت الحفريات بشمال موقع "سجلماسة"، حيث تم اكتشاف قنوات للري، بقايا أسوار، نافورة، مستحثات نباتية، عظام بشرية، أدوات زجاجية وخزفية وبعض المجوهرات.

– البعثة المغربية: سنة 1974, وفيها قام المفتش المعماري بمكناس "محمد بنشمسي" بحفريات قرب المسجد الأثري للمدينة، حيث تم ربط أسوار المسجد المبنية من الطين بالحقبة العلوية (القرن 17م).

– البعثة المغربية الأمريكية: بدأت البعثة أعمالها برئاسة الباحث الأمريكي A. Messier Ronald في يونيو 1988 بتوقيع اتفاقية تعاون وشراكة بين "المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث" و"جامعة ولاية ميدل تينيسي" الأمريكية. وإلى حدود سنة 1997, قامت البعثة بخمسة مواسم، وأنجزت خريطة مدققة للجزء الأساسي من المدينة.

– أبحاث "مركز الدراسات والبحوث العلوية"، بين سنتي 1991 و 1992, تحت إشراف مديره "لحسن تاوشيخت"، وتركز البحث على الكشف والتنقيب عن السور الغربي للمدينة وعن مصانع الفخار السجلماسي.

(28) الحديث رواه مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه ،وفي السنن الكبرى للبيهقي زيادة :ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي، واذا طبخت قدرا فأكثر مرقتها واغرف لجيرانك منها

وتَجدر الإشارة إلى أَنَّ خُطَّة هذه الرسالة، ومُعظم فُصولها،كُتبتْ ب "الْحَرَم المكي" الشريف، في أيام رمضان المزهرة، ولياليه المنيرة، وأنا في بيت اللـه الحرام، عند الكعبة المشرفة، قبالة ميزاب الرحمة، أسأل اللـه الذي ألهمني ووفقني لذلك، أن يتقبَّلها مني، ويَجعلها في ميزان حسناتي، وأن يُثيبني عليها، في الدنيا بصلاح ذريتي وأعمالي، وفي الآخرة برضى ربي، إنـه ولي ذلك والقادر عليـه،

قسمتُ هذه الرسالة ـ بعد المقدمات ـ إلى ثلاث محاور أساسية:

المحور الأول حول السيرة الذاتية للوالد ـ رحمه اللـه ـ بدءا باسمه ونسبه، وولادته، وأعماله ودراسته، وهكذا حتى وفاتـه.

والمحور الثاني تحدثت فيه عن مناقبه وفضائلـه، كشخصيته وعبادته وفقهه....

أماالمحور الثالـث: فقد خصصته لشهادات بعض تلامذته ومحبيه، انتقيتهـم انتقاء، واخترتُهم لماكان لهم من قرب بالوالد، أوحبه لهم، وإني لأشكرهـم جزيل الشكر على ماتفضلوا به علـي من معلومات حول الوالد، وما قدموه من شهادات، أعطت للرسالة وزنا علميا رصينا، وأضفت عليها حُلَّـة جميلة، وأثْرتَها بالفوائد المتَّـزنة القوية الرصينة، وكـم كنت أراهن على هذه الشهادات، وحرصي عليها أكثر من حرصي على الرسالة نفسها،

أسأل اللـه أن يثيبهم على ماقدموا، وأن ينفعهم بما تعلموا، كما أشكر كل من ساهم فى إخراج هذه الرسالة من قريب أو بعيد، خاصة من تفضل بقراءتها ومراجعتها، وإبداء ملاحظاته حولها، وهي في مخاضها و مهدها.

بين يدي الرسالة:
فى ذِكْر سِيَر الصالِحين دعوةٌ إلى التَّأسِّي والاقْتداء

عرض القرآنُ الكريم فى كثير من سُوره قصَصَ الأُمم الْماضِية، الْمُؤمنة والكافرة، الْمُطيعة والعاصية ،الْمُصلحة والْمُفسدة، وقَصَصَ الأنبياء والْمُرسلين، بدْءا بآدم ونوح وإبراهيم، ومرورا بموسي وسليمان وعيسى، وانْتهاء بِخاتم الأنبياء والْمرسلين، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وما أحدث في صحابته من خير وهُدى، وما وقع له مع أعْدائه مِن الْمُشركين، واليهود، والنصارى، والمنافقين، قصد التأسي والاعتبار: ﴿لقدْ كان لكُم فى رسُول الله أُسوةٌ حسَنةٌ لِمنْ كان يرْجو الله والْيومَ الاخر وذكَر الله كثيرا﴾[29] وفى نسق واحد، وءايات معدودة، متصلة الحلقات، ذكَر اللهُ ثمانية عشر نبيا، قال تعالى ﴿وتلْك حُجتُنا ءا تَيْناها إبْراهيم عَلى قَومه، نَرفعُ دَرَجاتٍ مَن نشاء، إنَّ ربَّك حكيمٌ عَليم، ووهَبْنا له إسحَق ويعْقوب، كُلاًّ هَدينا، ونوحًا هَدَينا من قبْل، ومِن ذُرِّية داوُود وسُليمان وأيُّوب ويُوسف ومُوسَى وهَارون، وكَذلك نَجزِي الْمُحْسنين، وزكَرياءَ ويَحْيى وعِيسَى وإلْياس، كُلٌّ مِن الصَّالِحين، وإسْماعيل والْيسع ويُونُس ولُوطا، وكُلاًّ فضَّلنا عَلى العالَمين، ومِن ءابائهم وذُرِّياتِهم وإخْوانِهم، واجْتبيْناهُم وهَديْناهُم إلى صِراطٍ مُّسْتقيم، ذَلك هُدى الله يَهْدي به مَن يشاءُ مِن عِباده، ولو أ شْركُوا لَحبِط عنهُم ماكانُوا يعْملُون، أُولائِك الذين ءاتيْناهُم الكِتابَ والْحُكْم والنُّبوءةَ، فإن يكْفُر بهَا هَؤُلاءِ فقَد وكَّلْنا بِها قوْما ليْسُوا بِها بكافرين﴾[30]

---

(29) سورة الأحزاب الآية 21

(30) الأنعام، الآية84-90

وفي ذلك دعْوةٌ إلى التأَسي بِهم، وأخْذ العِظَة والاعْتبار بأحوالِهـم، والسَّيْر على مِنْوال صالِحيهم، والابْتعاد عن منْهج المفسدين والكافرين. قال الله تعالى: ﴿وكُلاً نقُصُّ عليكَ من انبَاء الرُّسُلُ مانُثَبِّتُ به فُؤادَك، وجاءك في هذه الْحقُّ ومَوْعظةٌ وذِكْرى للمومنين﴾[31] وقال تعالى: ﴿اولائك الذين هَدى اللهُ فبهُداهُمُ اقْتدِه، قُل لاأ سألُكم عليه أجْرا، إنْ هُو إلاَّ ذِكْرى للعالَمين﴾[32]، وقال تعالى: ﴿لقدْ كان في قصَصِهمْ عِبْرةٌ لأُولي الالباب، ماكان حَديثًا يُفْترَى، ولكن تصْديقَ الذي بيْنِ يديْه وتفصِيل كُل شيئ وهُدًى ورحْمةً لقوم يُومنُون﴾[33]. وقال تعالى: ﴿كذلك نقُصُّ عليكَ مِن انباء مَاقدْ سبَق، وقد ءاتيْنَاك من لدُنَّا ذِكْرا﴾[34]. قال الحافظ ابن كثير: "وقد قصَّ اللهُ على نبيِّه صلى الله عليه وسلم خبَر مامضى مِن خلْق الْمخلوقات، وذكْرالأمم الْماضين، وكيف فعَل بأوليائه، وماذا أحلَّ بأعْدائه، وبيَّن ذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لأُمَّته بيانا شافيا"[35].

وفي ذلك دعْوةٌ من جِهة أُخْرى إلى أن نُتابع هذا البناء الذي أسَّسه القُرءان، فتاريخ البشريةُ على وجْه هذه البسيطة كسِلْسلة مترابطة الحلقات، بَدأتْ أوَّل حلَقاتِها بآدم عليه السلام، وكُلُّ جيل يطأُ هذه الأرض، يُكوِّنُ حلَقَة في هذِه السِّلْسلة، ولذلك كَان لِزاما على كُلِّ جيل أن يُحْكِم حلقته ويُتْقِنَها، وفاءً بحَقِّ مَن سبَقه، وخِدْمةً لِمن يأتي بعْده، وكُلُّ فرْد يَنْبغي أَن يُقدِّم ماعنْده، فَمَن لم يُحْسِن الْبِناء، فلْيُهيئ أدواتِه، ولْيُعِن كُلٌّ بماعنده، ولو بالكَلِمةِ الطَّيِّبة : ... "والكَلمَةُ الطَّيبَة صدَقة، وتميط الأَذَى عن الطَّريق صدقة"[36]،

وكان الصَّحابةوالتابِعون، يَتَعلَّمون ويُعلِّمون الْمغازيَ والسِّيَر، كما يتَعلَّمون السُّورة مِن القُرءان، روى محمد بن عمر الواقدي، عن عبد الله بن عمر بن علي بن

---

(31) هود الآية 119

(32) الأنعام الآية 91

(33) يوسف الآية 111

(34) طه، الآية 97

(35) مقدمة البداية والنهاية.

(36) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

الْحُسين، عن أَبيه قال: سمِعتُ علي بْن الْحُسين يقولُ:"كنا نُعلِّم مغازي رسُول الله صلى الله عليه وسلم، كما نُعلِّم السُّورة من القُرءان"[37].

وانطلَقَ العُلماء يُدوِّنون ويُؤسِّسُون هذِه الْحلَقات،

منهُم مَن كَتبَ التاريخ مِن آدم عليه السلام، إلى أيَّامه وعصْره[38]، ومنهُم مَن كتب عن جهة مُعيَّنة من جِهات العالَم-[39] ومنهم من كتب عن النبي صلى الله عليه وسلم وغزواته[40]، ومنهم من كتب عن الصحابة[41]، ومنهم من كتب وعمَّم[42]،

ومنهُم مَن كَتب عن حِقْبة خاصَّة من التاريخ، وفِئَةٌ أُخْرَى، كتَب كُلٌّ واحِد في دائرةِ اخْتصَاصه، فالفُقَهاء كَتبُوا عنْ أعْلامهم، كتَب كُل مذْهب منهُم عن أعْلامه[43]- وهكذا كَتبُوا عن الْمحدثين[44] - والْمُفسرين[45] والقُرَّاء[46]، والْمُتكلمين[47] والأُدباء[48] واللُّغويِّين، والنُّحاة[49]، والأصوليِّين، والشعراء[50]،

---

(37) انظر "البداية والنهاية" لابن كثير. الجزء 3 ص 297

(38) انظر "تاريخ الأمَم والملوك" للطبري، وابن الأثير في "الكامل في التاريخ" وابن كثير في "البداية والنهاية"، وتاريخ ابن خلدون

(39) انظر"تاريخ دمشق" لابن عساكر و"تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي و"الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" للحافظ ابن رجب و"البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع" للإمام الشوكاني،

(40) انظر"سيرة ابن هشام"

(41) انظر "أسد الغابة"، و"الإصابة" لابن حجر، و"الاستيعاب" لابن عبد البر .

(42) انظر "سير أعلام النبلاء" للحافظ الذهبي ،

(43) انظر "ترتيب المدارك" للقاضي عياض و"الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب" لابن فرحون، "طبقات الحنابلة" لابن أبي يعلى و"طبقات الشافعية" للسبكي ،

(44) انظر"تذكرة الحفاظ" للذهبي و"لسان الميزان" لابن حجر

(45) انظر"طبقات المفسرين" للسيوطي والأندوري

(46) انظر"غاية النهاية في طبقات القراء" لابن الجزري،و "معرفة القراء الكبار" للذهبي

(47) انظر"الفصل في الملل والأهواء والنحل" لابن حزم الأندلسي

(48) انظر"معجم الأدباء" لياقوت الحموي

(49) انظر "اخبار النحويين" لأبي طاهر المقري، و"تاريخ العلماء النحويين" لأبي المحاسن التنوخي

(50) انظر "معجم الشعراء" للمرزباني و"سلافة العصرفي محاسن الشعراء بكل مصر" لابن معصوم الحسنيي و"طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحي تحقيق محمود محمد شاكر

والأطبـاء[51] والبـلاغيِّـين، والقُضـاة والعُـدول ـ[52] والْمُؤرخيـن[53]، والْمُفتين، والْمُصلحيـن، والْمُتصوفة[54]، والْخُلفـاء[55] والْـمُلوك، والأمراء، والسلاطيـن، والوُزراء[56]، والفـلاسفة، حتَّى كَتبُوا عن الْحمْقَى والْمُغفَّلين، وعن البُخلاء، بل كتبُوا عن الْحَيوان والطُّيور[57].

وفي كُل هـذا دعْـوةٌ إلى اقْتفـاء ءاثارهِم، والسيْـر على مِنْوالِهـم، قال عبد اللـه بن مسعود رضي اللـه عنـه: "مَـن كان مُسْتنًّا فليستَـنَّ بِمَن قـدْ مات، فإنَّ الْحَـيَّ لاتُـؤمَن عليْـه الفِتْـنة"،[58]

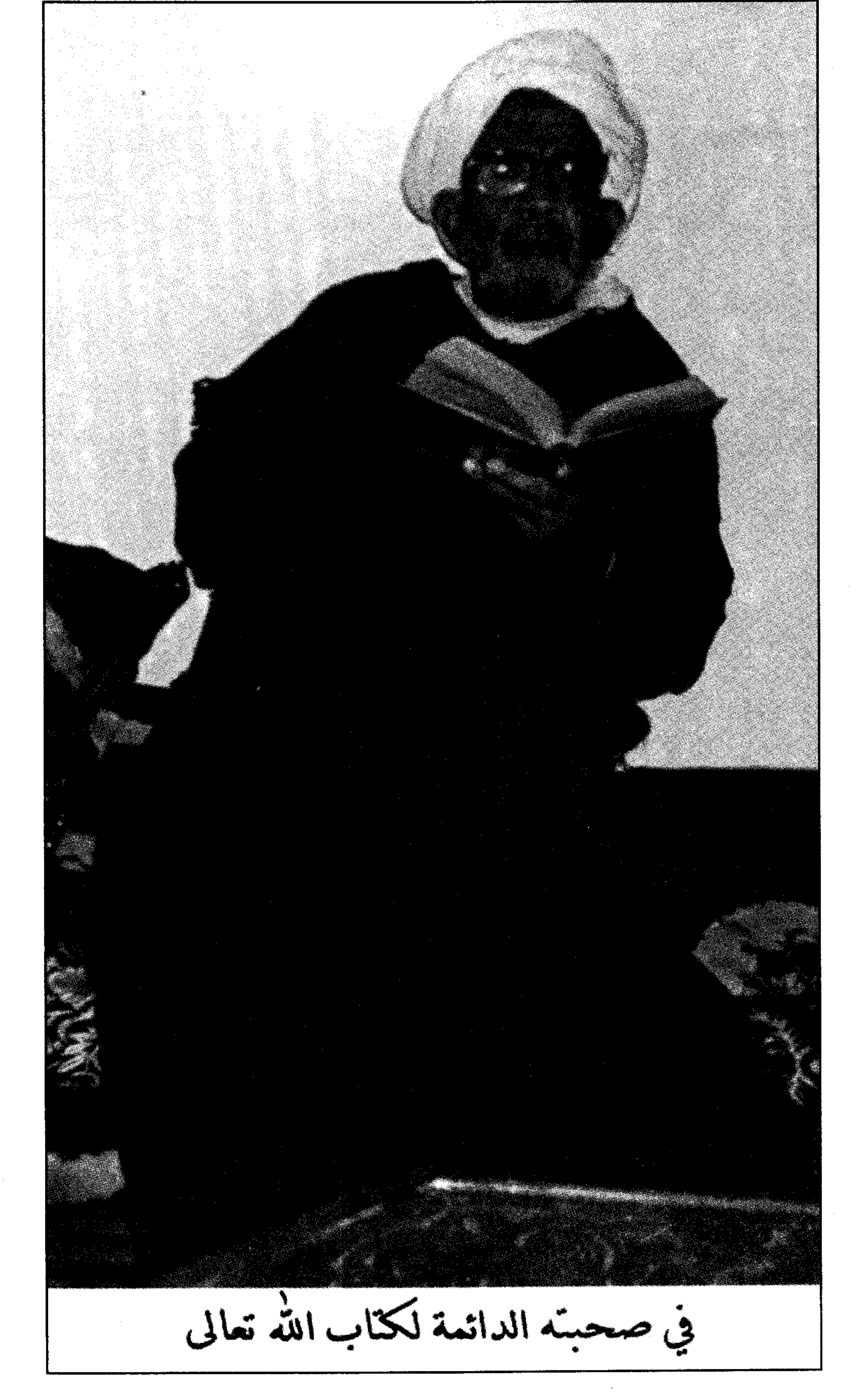
وقال أبوحنيفـة رضي الله عنه: "الْحِكاياتُ عن العُلماء ومَحاسنهم، أحبُّ الَـيَّ مِـن كثيـر مِن الفقـه، لأنَّها ءادابُ القوم وأخْلاقُـهم"[59]. وقال بـعْض السَّلف: الْحِكايات جُنْـد مِن جُنُـود الله تعالى، يُثبتُ الله بِها قُلوب أَوليائِـه، وقال سُفيان بن عُيينـة : "عنْد ذِكْـر الصالحين تتنَـزَّل الرحمـة[60]، وقال ابن الجوزي: "واعْلم أنَّ في ذكْر السيَر والتاريخ، فوائدَ كثيرة، مِن أهَمِّها: أَنْ يطَّلِع بذلك على عَجائب الأُمُـور، وتقلُّبات الزَّمن، وتصَاريف القَـدر، وسَماع الأخْبار، فالنَّفس تَجدُ راحة بسماع الأخبـار .

وقال أبوغدةرحمه اللـه:"إنَّ خيْر وسِيلـة لإشْعال العزائم، وإثارة الرُّوح الوثَّـابة، وقَـدْح الْـمَـواهب، وإذْكـاء الْـهِـمَـم، وتـقْـويم الأَخْـلاق بصَـمْـت وهُـدُوء، ودُون

(51) انظر "عيـون الأنباء في طبقات الأ طباء" لابـن أبي أصيبعة
(52) انظر"تـاريخ قضاة الأ ندلس" للنباهـي، و"أخبار القضاة" لوكيع
(53) انظر"السلـوك لمعرفـة دول الملـوك" للمقريزي و"جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس" للحميدي
(54) انـظـر "طبـقـات الصـوفـيـة" لأبي عبد الرحمن السلمي، والكـواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، لزين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي "طبقات الأولياء" لابن الملقن .
(55) انظر"تـاريخ الخلفاء" للسيوطي
(56) انظر"تحفـة الأمراء بتاريـخ الوزراء" للصابئ
(57) انظر"الأذكياء لابن الجوزي والبخلاء للجاحظ، وأخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي وحياة الحيوان للدميري و"كشف الأسرار في حكم الطيور والأزهار لعز الدين عبد السلام المقديسي
(58) انظر "جامع الأصول"، لابن الأثير
(59) أنظر: "أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض" للمقري الجزء الاول صفحة 6
(60) انظر: مـقدمة ترتيب المدارك للقاضي عياض

أَمْرأونَهْي، والتَّسامِي إلى مَعالي الأُمور، والتَّرفُّع عَن سفْسافها، والإئْتِساء بالأسْلاف الأَجِلاَّء: هُو قِراءةُ سِيَر نُبغاء العُلماء الصُّلحاء، والوُقوف على أَخْبار الرِّجال العُظماء، والتَّمَلِّي مِن اجْتلاء مناقِب الصَّالحين الربَّانيِّين، والاقْتراب مِن العُلماء النُّبهاء العاملين الْمُجدِّين"[61]

(61) انظر: "صفحات من صبر العلماء"، لعبد الفتاح أبي غدة، صفحة 18



في صحبته الدائمة لكتاب الله تعالى

السيرة الذاتية للوالد

- الاسم والنسب
- المولد
- أبوه
- أمه
- في الكتاب
- في الميدان العلمي والمسؤولية
- الزواج الأول
- بوادر الخير
- من هو ابن الشيخ
- الرحلة إلى فاس
- منهجه الدراسي في فاس
- العلوم التي درسها في فاس
- الزواج الثاني
- إلى العشورية
- احتكاكه بأقطاب الطريقة الدرقاوية
- من هو محمد بن الحبيب
- المستعمر الفرنسي يتابع تحركات الوالد
- الوالد في السجن
- محنة سكان قصر العشورية
- الوالد يحاضر بالجرف
- العودة إلى مسقط رأسه
- الاستقرار بمكناس
- وفاته
- تلاميذ الوالد

الاسم والنسب :

اسم الوالد - رحمه الله - هو الحاج[62] محمد بن العربي بن الحاج محمد بن العربي بن الحاج عبد الرحمن بن محمد بن الصغير.

ينتمي الوالد إلى أُسرة عربية أصيلة، تعتز بعروبتها، بدليل تسمية أبنائها، وفي فترات متعددة من تاريخها بـ(العربي)، وسلسلة نسبها لاتخلو من هذا الاسم.

هذه الأُسرة قدِمت مِن ينبوع النخيل، بالجزيرة العربية، استوطنت منطقة "السِّيفَة"[63]، بإقليم "الراشيدية"، وبنَتْ لها قصرا خاصا بِها يعرف باسم (قصيبة القايد).

ويبدو أن بعض أفرادها كانوا حكاما، بدليل وجود بنايات مَخزنية داخل القصر تُوفر للحاكم ما يحتاجه من ملاجئ ومرافق ومُعِدات، هذه البنايات تَحتوي على آلات حربية متعددة، ومحابس وزنزنات، ومرابد للإبل، وأُخرى للخيل والأبقار والأغنام، ومخازن للتمر والحبوب. وممرات مُتشابكة ومتداخلة، ومخابئ أرضية ومطمورات[64] وكهوف، مهيأة للطوارئ، وهجمات العدو، يَختبئ فيها النساء والأطفال.

---

(62) "لفظة: "الحاج" صارت لصيقة باسم الوالد بعد حجته الأولى 1377 هـ 1958 م ولا ينادى إلا باسم: "الحاج محمد" ووثائقه الإدارية هي الأخرى تجعل: "الحاج" جزءا من اسمه "العلم"

(63) "السيفة": كلمة تطلق على جماعة من الجماعات التي تضمها "تافلالت"، بإقليم الراشدية، دائرة أرفود، وهي من المقاطعات الست التي تأسَّست في سجلماسة ، وهي جماعة قروية بين "أرفود" و"الريصاني"، بِها حوالي عشرة قصور، يَخترق غابتها كل من الطريق الرئيسية الممتدة بين "ارفود" و"الريصاني"، و"وادي غريس". أنظر كتاب "سجلماسة وإقليمها" للأستاذ حسن حافظي علوي في الصفحات – 97-116-119-114

(64) – المطمورة: الحفيرة تحت الأرض/ القاموس

أما سـورُ القصر وأبراجُه، وما فيه من نقوش وزخرفـة وفُسيفساء، فهو الآخر يشهد على أنـه بناء مخزني.

هـذا السور المحيط بالقصر من جهاتـه الأربع، بناؤُه جدّ مُحكَم، يَحتوى على حائطَيـن، بينهما فراغ، يـزيد سُمك الحائط منهما على المتر، مما يدل على صلابته ومتانتـه

ويذكر البعض أن الأسرة تنتمي إلى الشرفاء، وهي لاتـدّعي هذا فيما أعلـم، وقرأتُ في بعض مصادر سجلماسة، أن الملوك كانو يبعثـون هدايا إلى سكان السيفة، بِحكم أنّهـم شرفـاء[65]، وفي هذه السنين الأخيرة حصل أحد أبناء عمي على نسب يربطنا بالأدارسة.

والوالد رضـع من إحدى الشريفات بقصر "أخنوس"[66].

المولـد:

وُلِـد ـ رحمه اللـه ـ كما وجدتُ بِخطه: في الثامن من شهر رجب، عام 1336هـ، 20 أبريل 1918 م ويبدو أنـه وُلد قبل هذا بسنوات؛ حسبما كان يَذكر، وحسب بعض الأحداث التي حضرها وهـو صغير، وقد وقعت قبل التاريخ المذكور.

أبـوه :

أبوه "السيد العربي"، أحد أعيان منطقة "السيفة" وشاب من أبطالها البارزين،

لـه ثروة كبيرة ، وعقـار مترامي الأطراف ، وواحـات مـن النـخيل على اختلاف أنواعها، ومخازن مملوءة بأنواع المطعومات، من تمر وزرع وزيت وسمن وقديد وخليع.

ومعلوم عند الخبراء بتاريخ المنطقة وعاداتِها، أنَّ تَخزين الْمطعومات في ذلك التاريخ، مؤشِّر قـوي على الثَّراء والغِنى، خاصة وقد مرَّت البلاد بفترات جفاف

(65) انظر سجلماسة وإقليمهاالصفحات 124—125— 154— 163.
(66) أخنوس أحد قصور: "وادي يفلي" بجوار ضريح: "مولاي علي الشريف" بالريصاني

وقحْط شديدة، لايستطيع الناس معها إطعام أَنفُسهم، فكيف بتكْديس الطعام وخزنه.

ولا زالت مخازن دور الجدّ تشهد على كثرة المخزون وضخامته[67]، فهناك خزّان[68] القمح الجيد، وخزّان القمح الوسط، وخزّان الشعير، ومخازن أخرى لأنواع التمر، كلٌّ نوع من أنواع التمر له مكانه الخاصٌ به، كما كانت له قلال[69] مملوءة بالقطع النَّقدية، ذهبيّة وفضّية، أُخرجت ليلا بالْجِمال، حينما تزوجت جدَّة الوالد من أَحَد كُبراء المنطقة، يُروَى أنَّها قاربت المائة حمولة، وكانت أنواع من التمر الجيدة تتكدَّس عندهم لسنوات، لايصلون إليها، وليْسوا بحاجة إلى بيعها، أمَّا الإبل، والخيل، والبغال، والحمير، والبقر، فعندهم الكثير منها، ولا يملكون إلا جيِّدها وأحْسنَها.

تزوج والده بالسيدة صفية (خيتي) في النصف الأخير من ذي القعدة 1334هـ أواسط شتنبر 1916 م.

الوالد – المترجم له – الابن البكر لهما، ثم ولد لهما محمد العربي (خيي)، سنة 1340هـ 1922 م.

توفي السيد العربي شابا في مُقتبل العمر، لايتجاوز الرابع والعشرين من عمره، توفي مجاهدا، يذكرون أنَّه كان في بيته يقرأ ورده اليومي، فسمع طلقات نارية خارج القصر، فتوشَّح سيفه وسلاحه الناري (السْدَاسِيَة)، وركب فرسه، والْتقى ببعض زملائه وأقرانه الذين خرجوا للأمر نفسه، فأسْرعوا لحماية الثُّغور، وردِّ المعتدين، ومات رحمه الله في هذه الخرجة في 14 محرم 1344هـ، 4 غشت 1925 م وفي هذه السنة وُلد له الابن الثالث، الذي تركه في بطن أُمِّه، وسمي باسمه (العربي).

---

(67) الضخم بالفتح والتحريك ، وكأحمد : العظيم من كل شيئ أو العظيم الجرم،الكثير اللحم، وضخم الشيئ ضخامة عظم ، وامرأة ضخمة .القاموس والمصباح

(68) يُسمى "السرير"

(69) القلة: إناء للعرب كالجرة الكبيرة ، والجمع قلال مثل برمة وبرام ، وربما قيل "قلل" مثل "غرفة وغرف" المصباح المنير

عاش الوالد مع أمه صفية وجدته السعدية (امَّايَا)، ومعهم الخدم والحشم والعبيد والخماميس[70]، عدد من الأسر كانت تعيش معهم وتحت ثرواتِهم، إمَّا عن طريق الخدمة، أو عن طريق العطاء، أوعن طريق القرابة.

أمــه :

أمه "صفية"، من أُسرة عربية أصيلة، لها نفوذها ومكانتها، اقتصاديا واجتماعيا.

أبوها: محمد بن عبد الكريم، فقيه، متمكن من العلم والمعرفة، يلقي دروسه وخطبه ارتجالا بدون اعتماد على كتب الخطابة ودواوينها، وعقيدته عقيدة السلف وائمة الهدى، وأخلاقه أخلاق أولي الفضل والنهى: كرم وجود، وصدق ووفاء، وصدع بالحق، لايخاف في الله لومة لائم.

نشأت السيدة صفية في جو هذه الفضائل، وتشبَّعت بتلك المبادئ والقِيم، وطبَّقتها عَمَليا حينما أصْبحت تُدير أسرتها، تتمتع بأخلاق عالية، مِن الكرم والجود، وحسن الضيافة، والبشاشة مع الصغير والكبير، والقريب والبعيد، ولها شخصية قوية، يذكرون لها مواقف، قلَّ أن تكون في الرجال، فضلا عن النساء.

تزوجت بعد وفاة زوجها السيد العربي، فأنجبت من هذا الزواج بنتين هما "رقية" و"حليمة" الأختان الوحيدتان للوالد من جهة الأم.

توفيت صفية يوم الأربعاء بعد الظهر في جمادى الأولى 1375 هـ دجنبر 1955 م

في الكُتــاب:

دخل الوالد إلى المسجد كعادة أبناء النمطقة ليتعلم الكتابة والقراءة، بدأ بحفظ القرآن على المدرِّر (شيخ التحفيظ)، وكم كان جميلا أن يُلقَّن الطفل البسملة قبل كل شيء، وأن يتعلم الحروف الأبجدبة بواسطة سورة الفاتحة

---

(70) مفرده : خماس وهو الفلاح الذي يتعاقد مع مالك الأرض للعمل فيها مقابل خُمُس المحصول، ومن هنا سمي بالخماس قال الفيومي في المصباح خمست الشيئ بالتثقيل : جعلته خمسة أخماس

أول شيخ بدأ القراءة والحفظ على يديه هو: "الطالْب محمد" وهو من طلبة تافيلالت[71] المشهورين وقتها،

كان الوالد مُجدًّا في قراءتـه، وظهرت عليه منذ صغره أمارات الذّكاء والفطنة، يُشجِّعُـه شيخه على الحفظ، ويُرغِّبُـه فيه، و يقول له: "اقرأ يابُـني واجتهد، وواصل الليل بالنهار، لتحفظ القرآن مبكّرا، ولا تشتغل باللّعب مع أترابك، فما كُـل من يَحضر الكُتّاب جاء ليقرأ، منهـم من جاء لذلك – وهذا هو المفروض–، وأنتَ منهم يابُـني، ومنهـم من جاء ليؤنس الْمُجدّيـن".

حفِـظ القرآن في سن مُبكّرة، وهُنا توقَّف عنِ القِراءة، وانقطع عن الدراسة، واكتفى بِحفظ القرآن.

---

(71) تسمية سجلماسة بتافلالت، يعود إلى العصر الوسيط، وبالضبط إلى الفترة التي شهدت قدوم الشرفاء العلويين إلى هـذه المناطق، أي أواخر القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، ولفظ "تافلالت" – حسب هذه الرواية – تم اشتقاقه من كلمة: "اوفيواْ"، من فعل وفى يفي، و "أوفيوا" معناها: أوفوا بصيغة الأمر، وهذه الكلمة هي التي كان يقولهـا الشريف "مولاي الحسن بن القاسـم"، القادم من الحجاز إلى "سجلماسة"، بـعد استقراره بين ظهراني سكانها، وكان قد علمهم طرق ري جديدة، وتـعهد هؤلاء في المقابل بتأدية ربع الغلة، في حالة نجاح فلاحتهم، لكنهم رفضوا إعطاء الشريف ماوعدوه به– بعد أن تحقق لهم نجاح فلاحتهم– فكان يقول لهم: "اوفيوا" أي أعطوني ماوعدتموني به، فيجيبونه: لالا، فسموا: فيلالا ، من كلمتي اوفيوا و: لالا، فتكون تسمية تافلالت على هذا: مكونـة من الكلمتين، وإضافـة تاء البداية، وتاء النهاية، إنما تكون لإعطاء اسم المكان العربي صيغة بربرية. وهناك قولٌ يقول بأن كلمة "تافلالت" هي الصيغة البربرية لكلمة: "فلال"، التي هي اسم منطقة بالجزيرة العربية، وشاع استعمال هذه الكلمة في مرحلة قدوم الهلاليين إلى بلاد المغرب بفضل "عرب الصبَّاح"، الذين استقروا بمنطقة "تيزمي" و"الجرف" بإقليم "سجلماسة"، بعد أن رافقـوا الهلاليـين في طريقهم نحو الغرب.
وهناك قول ثالث يقول: بأن كلمة تافلالت مأخوذة من "أفيلال" أو "فيلال"، التي تطلق على سلسلة جبلية صغيرة بمناطق "سجلماسة"، يصل علو أعلى قمة بها: 785 م، وتوجد على بعد: 50 كلم، جنوب جنوب شرق مدينـة "الريصاني"، و4 كلم، شمال شمال غرب مدينة "الطاوس"، ويعتبر جبل "أفيلال" من المواقع المأهولـة قديما بمناطق "سجلماسة"، لأن به بعض الآثار التي تشهد على استقرار الإنسان به منذ فترة غابرة. انظر كتاب "سجلماسة وإقليمها" صفحة: 89-90-91

في الميدان العَمَلي والمسؤولية :

يبدو أنَّ الدافع الأكبر الذي أوقف الوالد عن مواصلة الدّراسة، هُو وجود فراغ في البيت، ووجوبُ وجود راع يَحْتضن الأسرة، فالبيتُ ليس له راع يرعاه، ويُدير شُؤونه، ويَلُمُّ شَعْثَه، ويحمي ثرواته الدّاخلية والخارجية، خاصة وأنّه رأى جَدّته تزوّجت، وخرجت مِن البيت، وأُمّه كذلك تزوّجت، وأَدخلت على الدّار رجلا غريبا، ورأى ثروات الدّار تُنهَب، وخيراته تُستنزف، والأَخوان الصغيران في حاجة إلى من يرعاهُما.

انقطع الوالدُ عن الدّراسة، واشتغل بالبيت إدارة وتسييرا، كما اعتنَى بأَخَوَيه تربيةً وتدريسًا، وكان لهما الأب الحنون، خاصة أخاه الأصغر (الحاج العربي)، الذي ظل يُجلُّ الوالد غايةَ الإجلال طيلة حياته، ويَذكر دائما ماقدّم له من عناية ورعاية، كان حرصه مُنصَباً على تعليم أَخَوَيه حتى يكُونا من أهْل العلم، يُحضر لهما أمهر الطلبة والقُرّاء، ويَصحَبهما إلى أحسن المدارس.

في هذه الفترة تَولّى الوالدُ عدَّة مناصب في المنطقة :

- كان مقدَّما للطَّلبة (حفظة القرآن)
- ناظرا لأوقاف المنطقة
- أحد أعيان المنطقة (جمَّاع)
- الناطق الرسمي للمنطقة عند الجهات المسؤولة، ولذلك كانت عنده وثائقُ المنطقة وعقودُها،كعقود السواقي ومَجاريها ، وعقود حدود البلدان الْمجاورة، أَحضَرَها في كثير من النزاعات القَبَلية ، وقرأها أمام حاكم الاستعمار، وقاضي المدينة، وبقيت عنده حتى سلَّمها لأحد زعماء المنطقة.
- مقدما للسلطات المسؤولة، ثم شيخا.

أثناء قيامه بِهذه المناصب عرف بالصَّرامة والجدّية، وقول الحق ولو على نفسه أو الأقربين، لا يَلين للحاكم المستعمر؛ وكم وقعت له معه من مواقف في بعض نزاعات المنطقة، يأتي الحاكم بسلطته وجبروته، فيُحضرُ الوالدُ معه أعيانَ القبائل،

والوثائقَ المساندةَ لحقّهم، فيقرؤها أمام الجموع بشخصيته القوية، فَيُفحمُ الخصم، وهذا كان يسبب له متاعب كثيرة؛ يَذكُرُ أخوه محمد العربي (خيي) أنّ الحاكم الفرنسي مَرَّ في الطَّريق ذات يوم مع حُرَّاسه وجلَّاديه، ومن عادة السُّكَّان أن يقفوا ويُقدّموا له التّحية عند مروره، فلم يُقدّم العمُّ التَّحيَّةَ، فأمر بإلقاء القبض عليه وإدخاله السجن، وقال له: غِلْظَةُ أَخيك التي تريد أن تَتَقمَّصها وتُحاكيها، سأنزعها منكما، وأذيقكما العذاب والهوان.

كان الوالد يُعرف خلال هذه الفترة، ب: (اسي حَمُّو)، ويكره أن ينادَى بِهذا اللقب، ومن سمعه يناديه به عبس في وجهه، وربَّما أَغلَظَ له القول[72].

الزواج الأول :

تَزوَّج الوالد– رحمه الله – بإحدى قريباته في جمادى الأولى سنة 1352هـ، شتنبر1933 م تزوجها رغما عنه، إذ لم يكن يريدها، ولا بينه وبينها علاقة وُدّ وَمَحَبَّة، وإنّما فُرضت عليه من طرف من لاَّ يمكنه عصيانُها، ولدت له ثلاثَ بنات، و لم تَدُم العشرة معها طويلا، طَلَّقها يوم أن قَرَّر السفر إلى فاس لطلب العلم.

---

(72) المنطقةُ مع الأسف تُغيّرُ الأسماء وتُشوّهُها، يُنادون "محمدا" : (حمّان أو حَمُّو)، و"أحمد": (حدًّا)، و"عبد القادر": (قدُّور أو قَدا)، و"عبد العظيم": (عضَّام)، و"عبد الواحد": (حَّاد)، و"عبد الله": (عبُّو)، و"عبد الرحمن": (حُّو). ومن النساء: ينادونَ "زينب": (زي، أو ازا، أو زِينَا)، و"عائشة": (شاشَّا، أو عَبُوش)، و"حليمة": (حاما)، و"رقية": (قَّا، أو قاقا)، و"آمنة" : (نانا)، و"فاطمة": (ماما).
والغريب في الأمر، أنَّ الذي يدفعهم إلى هذا، هو الاحترامُ والتَّقدير، مِن سوء الأدب عندهم أن ينادي الصَّغيرُ الأكبرَ منه باسمه المجرد العلم، ومن علامة أدبه وحيائه، أن يناديه باسمه مبتوراً، مثلا: (حَدًّا) عندهم أفضل من "أحمد"، و "عَبُّو" أفضل من "عبد الله"، نعم يُنادَى باسمه العلم المجرد، من طرف أترابه وأقرانه. كُنَّا صغارا، نستحي أن ننادي "عبد الله" باسمه هكذا، أو حتى مع ضميمة "السيد"، وإذا ناديناه ب: عبو) فقد تأدبنا معه.
هذا التعامل مع الأسماء قد نجد له مثالا في اللغة، ونماذجَ على منواله، كالتَّرخيم، والنَّحت، وتنوين العوض، إلا أن ذاك لاينضبط بقواعد علمية تضبطه وتحصُره، إنما هي ألفاظ عامّية، تتداول عند سكان منطقة تافلالت وغيرها.

بوادرُ الخيـــر :

بحكم قرب الوالد – رحمه الله – من حَفَظَة القرآن، ومن مريدي الطريقة الدَّرقاوية، وبحكم مركزه الاجتماعي في البلد، كان يلتقي في بعض مجالسه مع عالم من علماء المنطقة، وأَحَد أئمَّتها البارزين، وهو ابن الشيخ الإراري[73]، وهذا الشيخ رأى في الوالد علامات الخير، وأمارات الذَّكاء والفطنة، رأى فيه طاقات لايليق أن تُهدَر، وأن تضيع منها الأُمّة، رأى فيه أَنَّه لايصلح أن يعيش عيشة جُلّ أبناء المنطقة، ولذلك هذا الشيخ، كُلَّما رأى الوالد، أو التقى به قال له: "يابني مثلُك ينبغي أن يشتغل بالعلم، لينتفع به الناس، أُترك عنك التَّجمُّعات، واللقاآت السياسية والقَبَلية، واحضُر معنا مجلس العلم"، تَتَكَرَّرُ هذه الكلمات وتتردد من الشيخ كُلَّما رأى الوالد، رحمهما الله، والوالد بدوره كان يُجلُّ الشيخَ ويُكرمُه، ويَستدعيه إلى بيته في كثير من المناسبات، ويَحضرُ مع الشيخ بعضُ طَلَبَته الذين لهم صلة أيضا بالوالد.

ومرةً استضاف الوالد الشيخَ، مع بعض مُقَرَّبيه، وكانوا قلائل، فَوَجَدَها الشَّيخُ فرصة، وأَلَحَّ على الوالد في الحضور إلى حلقة الدرس، وأكَّدَ له مَرَّةً أخرى أنَّ له مُؤَهّلات فكرية وخُلُقية، ستجعل منه عالما تَنتفع به الأمة.

استجاب الوالد للشيخ وبدأيحضر دروسه، وهو أوَّلُ شيخ يَفتَحُ له آفاق العلم، ويُعَلّمُهُ أَبَجدياته ، ويَضَع يَدَهُ على مفاتيحه ، قرأ عليه : "مُقَدّمَة ابن أَجَرُّوم" بشروحها، ومُعربيها، ومتن "الأَخضري" في الطَّهارة والصلاة، و"المرشد المعين" بشروحه،كما حضر دروسه في شرح "مختصر خليل"، و"الفية ابن مالك"، وحضر دروسه في "تفسير النسفي"،

كان هذا الشيخ يَحُضُّ طلبته على مواصلة طلب العلم ، ويُشَجّعُهُم على التحصيل، ويُحَبّب إليهم العلم، ويُرَغّبُهُم فيه، ويُحَذّرُهم من الانقطاع عن العلم وحَلَقاته وأَهله، ويَرفَعُ من مَعنَوياتِهم، يقول لهم: "مَنْ قَرَأَ المرشد المعين بشَرْحَي ميارة فهو الفقيه".

(73) كان إماما بقصر "أولاد يحي بالسيفة، وسيأتي التعريف به أكثر إن شاء الله

تَعَلَّق الوالد بالشيخ تَعَلُّقا كبيرا، إذ وَجَدَ فيه النموذج الأعْلَى في ربط العلم بالعمل،كما وَجَدَ فيه القُدوةَ في السُّلوك والأخْلاق، وَجَدَ فيه العالـمَ الذي يعمل بعلمه، قبل أن يدعو الناس إليه، لذلك لزمه ملازمة الظّلِّ لصاحبه، ورافقَه في كلِّ تحرُّكاته، داخل المنطقةوخارجها، يحضر دروسه ومحاضراته ومناظراته، سواء كانت في التفسير، أو الحديث، أو الفقه.

من هو ابن الشيخ؟

بما أن هذا الشيخ هوالذي غَيَّرمسار حياة الوالد، فمن حقه علينا أن نقف معه وقفة، لنعرف ببعض صفاته وأخلاقه، هو علمٌ من أعلام الأمة،ورَمْزٌ من رموزها البارزة في منطقة تافيلالت، يَتَفَجَّرُ علما وأَدَباً، ربَّانيُّ وقْته، وزاهدُ زمانه، كثيرُ الخوف من ربه، شديد المحاسبة لنفْسه، لاينقطع عن العبادة، ولا يَفْتُرُ لسانه عن ذكْر ربّه، دائمُ الصَّمْت، تكاد تعدّ كلماته في مجلسه، يَمْلك جوارحه ولاتَمْلكه، كثيرُ الصدقة في خفاء.

كان إماما يصلّى بالناس، والصلوات التي لم يصلها بهم في المسجد، يَنْقُص ثمَنَها من راتبه في نِهاية السنة، ويرُدُّه إلى المسجد، يَحكون أنّه كان يَتَحَسَّر على ذنوب ارتَكَبَها؛ منها: أنّه قرأ مرةً بالليل على ضوء شمعة المسجد، ومنها: أنه أخذ عسيفا من نَخلة للمسجد ليربط به متاعا له، كثيرا مايصلى الصبح بوضوء العشاء. يقول الوالد: كُنَّا نَحضر درسه في الليل، فينتهي الدرس، ونقوم فنتركه في مكانه، فإذا عُدْنا قُبَيْل الفجر، وجدْناه لم يَبْرَح مكانه؛ أي أَنَّه بات قائما لله مُصليا وذاكرا، يأتيه موذنه بماء الوضوء قُبَيْل الفجْر، فيجده إمَّا مُصلِّيا، أو ذاكراً، أو واضعا رأسَه على مَرْفقَيْه أو رُكْبَتَيه، ليستريح قليلا من قيام الليل، ويَحكون عنه قوله: "كنتُ أسبق الْموذن إلى المسجد، وما عقلتُ أنَّ الفجر أَذَّن فوجدنى نائما، ألزمت نفسي بِهذا قبل أن أحتلم"، وبقي على ذلك حتى مات رحمه الله

ومن كرمه ورحمته بالفقير والأرْمَلَة، أنَّه كان يَذهب بالعَطاء إلى بيوت الْمحتاجين والْمحتاجات ليلا، ويضعه عند باب البيت دون أنْ يعلمَ به أحدٌ، وماعَرَفوا أنَّ ذلك منه، حتى انقطع عنهم ذلك بوفاته.

أَمّا حِفْظُه وقُوَّة ذاكرته: فهوآية في الحفظ والذكاء، يحفظ عشرات القصائد والمتون العلمية، ويحفظ آلاف الأحاديث النبوية،كمايحفظ تفسير النسفي، ومن قوة ذاكرته، أَنّه كان إذا أَراد أَنْ يُلْقِي درسا، وراجَعَ له صفْحةً أو صفحات، يَخرج فيلقِي درْسَه، وكأَنّه يستعرِض ما طالع سطراً سطْراً، حفِظ ذلك بتلك النظرة، ويَذْكُرالوالد أنَّ الشيخ تكلم في أحد دروسه في مسألة فقهية أوحديثية، فعارضه أحد الفقهاء الحاضرين، فأوقَفَ الدَّرس، ودخل مكْتَبَتَه، فأخْرَج كتابا، وأعطاه لأَحد طلبَتِه، وقال له: إقرأ في صفحة كذا، فوجَدْنا الشيخَ كأنّه ينظر في الكِتاب من وراء حُجُب، وكأَنَّه يقرأ فيه وهو يلْقِي درسه.

يذكر الوالد له كرامات شاهدها فيه، تَدُلُّ على قرب الرجل من ربه، وانتفاعه بعِلْمه، كراماتٌ عجيبةٌ وغريبةٌ، يطول الحديث بذكرها، ويصْعُب علينا أن نُصدِّقها أو نُكذِّبَها[74]

للشيخ مكتبةٌ نفيسة، من المكتبات البارزة في المنطقة، تَضُمُّ نفائس الكتب،من مُخْتَلَف الفنون والعلوم، لازالت مصونة عند أولاده بتافلالت إلى الآن.

قرأَ الشيخ في جامع القروين، وتَخَرَّج بِها أَيّام نَهضتها العِلْمية، وأَحْرَز فيها على شهادة "العالمية".

وهو فيلالِيٌّ أصلا ومَحْتِدا، ينْحَدِر من عائلة عريقة في الْمجد والشَّرف، وترك ذرية صالحة وتلاميذَ نُجَباء، على رأسهم الوالد رحمه الله،

تأَثَّر الوالد بِهذا الشيخ كثيرا، وأُعْجِب به غايةَ الإِعْجاب، كيف لا وهو الذي غيّر مجرَى حياته، وهو الذي نَقَلَهُ هذه النّقلة العجيبة، وانْتَشَلَه مِن تلك الأوحال التي كان فيها، هو الذي صَقَلَ مَواهبَهُ، وحبَّب اليه العلم، ورغَّبه في الطاعة، وعَرَّفه كيف يعبد ربَّه عِلْما وعَمَلا، وسلوكا وأخلاقا.

---

(74) منها أن الشيخ كان مرة في بيت مظلم، حالك الظلام، فوقف الوالد عند باب البيت ، فرأى نورا ساطعا ينطلق من الشيخ إلى عنان السماء.

في جانب العلم، يَحكي الوالـد أنَّ جُـلَّ ماقرأه عليه، كأنَّـه نُقش في قلبه نَقْشا، وما قرأه بعد ذلك في فاس وغيرها، يستحضر بعْضَه ونسي أكْثَره، بينما هذا الشيخ أقوالُه ومسائلُه ومواقفُه مضْرِب الأمْثال للوالد، لايكاد يَخلو مَجلس من مَجالسه من بعضها، يَسْتحْضر حتَّى حَركَاتِه وإشاراته.

أمَّـا سلوكُ الشَّيخ وأخْلاقُه فقد تَقَمّصَها الوالد، وظلَّ يحاكيه في عباداته، وفي زُهْده، وبقي وفِيا لهذا الشيخ حتَّى بعد وفاته؛ يزورُ أسْرتَـه ويشاركُهُم أفرَاحَـهم وأتْراحَـهُم، ويَتَفَقَّدُ أحوالَهم الصَّغيرةَ والكبيرة، وهـم بدورهم يعدونه فردا من أسرتِهم، ويَرَون فيه آثار والدهـم.

الرحلة الى فـاس:

لَمَّا ذاق الوالد – رحمه الله – حلاوةَ العلـم، واخْتلَطَت مَحبَّتُه بلحْمه ودَمه، ومَلَك عليهِ عقْلهُ ولُبَّـه، تطلَّعتْ نفْسُه إلى الْمزيد، وأحَبَّ أنْ يَرْتويَ أكثر: "منْهومان لايشبعان، طالب العلم، وطالب الدنيا "[75] والنُّفوس العالية لاترضَى بالدُّون، ولا تكْتفِي بالقليل، ووجُود الوالدِ بين أهلِه وذويه، وفي مسْقط رأسه، لا يُساعدُه على ذلك، فقرَّر أنْ يُهاجر إلى فاس، إلى جامع القروِين، وهيَ يوْمَها قِبْلةُ العلم والعلماء، هي مركز إشعاعي عالَمي، تضُمُّ نُخْبةً من العلماء الكِبار، في مُخْتلف العلوم والفنون، وتُدرَّس فيها العُلُوم لِكُلِّ الطبقات، يَجد فيها الْمُبتدأُ ضالَّته،كما الْمُتخصّصُ، ولم تكُن القروين وحدها، بل فاس كُلُّها تعُجُّ بالعلم والعلماء: مساجدها، مدارسها، زواياها، دورها، دروبها، أسواقها....

طَلَّق الوالدُ زوْجتَه في محرم 1365هـ، 1946 م وسافر إلى فاس في ربيع الأول من السنة نفسها

---

(75) الحديث في مصنف عبد الرزاق قال : اخرجه البيهقي في شعب الايمان من حديث انس رضي الله عنه

سَفَـرُ الوالد إلى فاس، كان رغبةً في العلم، وحِرصا على الاحتكاك بأهله وذويـه، من طَلَبة وأساتذة، في مَحْضِنه الأُم، وبَحْره الزاخر: "فـاس".

و لم يكن يقصد مِن وراء دراستـه الحصولَ على منْصِب، أو وظيفة، أو شهادة، إنَّما جاء إلى فاس ليلبِّي رغبات نفسه المتطلعةِ إلى مختلف العلوم والمعارف، كماكان قصده بـه التَّـقرُّب إلى اللـه؛ ليعبد ربـه عن علم، ولينْخرط في سلْك العُلماء، وما أعـدّ اللـه لهم مِن الدَّرجات العالية في الدُّنيا والآخرة[76].

ولذلك فهو يُـجِلُّ العلمَ ويُـقدِّره قدْره، ويَجعله في قمّـة مطالبه، ولا يُدنِّسه بمصالح الدُّنيا ومتاعِها، يَرَى أنَّ العلْمَ ينْبغي أن يُـطْلَب للـه، ورغبةً في العِلْم والتَّـعلّم، أمَّا مصدرُ الرِّزق، فهو يَرَى أنَّ طالبَ العلم ينبغي أن يتَّـخذ طُـرقاً أُخْرى للارتـزاق.

وهذا هو منْهج السَّلف الصالح؛ يتَّخذ العالم لنفسه حِرْفةً يكْسِب بِها قوت يومه وقوت عِياله، تجد العالم حدَّادًا، وبـزَّازًا، وكُتْبيا، وصائغا، وتاجرا..

والوالد كان يرى في ميراث أبيه مايَـكفيه موئـنة العيش، وقد خَبَر ذلك يوم أنْ أدار مُمْتلكات أبيـه.

لَـمَّا وصل الوالد إلى فاس، أُجْريَ له اختبار لمعرفة مؤهلاته، ومستواه العلمي والثقافي، وبناء على نتائج هذا الاختبار، تَم تسْجيـله في السِّلك الثانوى، وأُعْـطي لهُ بيتٌ في المدرسة البوعنانية، فـضاءٌ سيُعمِّـق فيه الوالد خبراتـه، عن طريق العلماء الدَّارسين، وعن طريق الاحتكاك بالطلبـة الوافدين من كل جهات المغرب.

كان يبدأ الدِّراسة قبل الفجر، ويَستمرُّ إلى مابـعد العشاء، يحْضرُ درْسا أو درْسَيْن في أحد المساجد بعد الفجر، وقـد يَحْضر آخَرَ قبْل الفجر، حسب الوقت ضِيقًا

---

(76) ويكفي في شرف العلم قول الله تعالى ﴿يرفع اللـه الذين ءامنوا منكم والذين أوتـوا العلم درجات﴾ وقـوله تعالى ﴿إنما يخشى اللـه من عباده العلماء﴾

واتّساعا، فإذا جاء وقْتُ الدِّراسة بِجامع القرويّين، حَضَر دُرُوسَها النِّظامية، فإذا توقّفت الدِّراسةُ في مُنْتَصف النَّهار، يحضر جُلُّ الطلبة من مُختلف الطِّبقات درس الشيخ "الزِّيتوني" في شرحه لألفية بن مالك، وهو درس حافل؛ يَجْمع بين اللغة، والأدب، والشعر، والفقه، والسياسة، يَتَشَوَّف جميع الطلبة إلى هذا الدَّرس، لأنّه إلى جانب حمولته العِلْمية المتنوعة، ينْتقد فيه الشيخُ بعْض رجال العلْم، ويُعالج فيه القضايا المستجدَّة.

حضر الوالد هذا الدَّرس بانْتِظام، طيلة أربع سنوات، وكان الساردَ للشيخ فى بعض حلقاته، وصَل فيها مع الشَّيْخ إلى قول صاحب الخلاصة:

"لَمدِّها فعْلاءُ أفْعِلاءُ مُثلَّت العين وفعلاء".

ثُم يَحْضُر الدُّروسَ المسائِيةَ في القرويِّين، فإذا انتهت، حَضَر درسا بين العشاءين، ثم آخر بعد العشاء، حَسَب طُول الليل وقِصَره، ويُضيف إلى هذا زيارات خاصة لأحد الشيوخ في بيوتِهم،كما كانت له مناقشات وحوارات مع الطلبة الذين يحضرون معه حلقا ت الدرس.

وكان معه نُخبة من الطلبة الْمُجدِّين، أمثال: "مولاي الزاهِد"، الذي عين فيما بعد رئيسا للمجلس العلمي باالرشيدية، و"مولاى عبد الله الصوصي"، الذي تولّى رآسة الْمجلس العلمي بالدار البيضاء، و"سِيدْ الحبيب الْمَغْضاضي"، الفقيه الموسوعي، و"الغازي الْحُسيْنِي"، والسيد "أحْمد القُرِّي"، والأستاذ "أحمد العزِّيوي"، والأستاذ "السُّليْماني"، الذي كان خطيبا بمسجد (بو جلود) بفاس، وأستاذا بِها.

وهكذا حصل في أربع سنوات على عدد كبير من العُلوم، وتَتَلْمَذ عَلى مَجْموعة كبِيرة من الأَساتذة والعلماء، ودَرَسَ عَدَدًا وافِرًا من الْمُؤلَّفات والْمُتو ن.

كان العِلْم شُغْلَه الوحيد، وهَمَّه الكَبير، فَنال مِن العِلْم خِلال هذه الْمُدَّة ما لم ينَلْه طالبٌ آخر، خلال الأسْلاك الدراسية الثلاثة: الابتدائي والثانوي والعالي، يجلس فيها الطالب اثْنَيْ عشر سنة.

العلوم التي دَرَسَها في فاس:

أَذكُر هنا العلوم التي دَرَسَها في فاس خلال سَنَواته الأربع، دُون أنْ أتَقَيَّد بترتيبها العِلْمي، كأَنْ أذكر النَّحوَ ثُم الصَّرف وهكذا، ودُون أنْ أتَقَيَّد بترتيبها الزَّمني، كأَنْ أذكُر أنَّه قَرأ كذا أوَّلا، ثُم قَرأ كذا ثانيا، لأنَّه هو نفسه لم يتَقيَّد بهذا، لَمَّا نَزل بفاس، كانت لديه بعضُ المبادئ العِلْمية، فلمْ يَحْتَج أن يَتَقَيد بالتَّرتيب العِلمي، لأنَّ المفاتيح عنده، ولم يَتَقيد بالتَّرتيب الزمني، لأنه يسْعَى أنْ يأخُذ كثيرا من العلم، في أقلّ مدَّة.

- قرأ "تُحفة ابن عاصم" مرتين على أبى الشتاء الصنهاجى – ولأبى الشتاء عليها شرح في سبع مجلدات –
- وقرأ "مختصر خليل"، مرة على أبي الشتاء الصنهاجي، ومرَّةً على السيد حسن مزوار وجَسُّوس.
- وقرأ "لامية الـزُّقاق" على أبي الشتاء الصَّنهاجى، ولأبي الشتاء شرح عليها، وهو مطبوع ومتداول.
- وقرأ "فرائض خليل" على أبي الشتاء بحاشيته عليها، وهي مطبوعة .
- وقرأ "الوثائق الفرعونية" على أبي الشتاء،
- وقرأ "لامية الزقاق" على الكتانى .
- وقرأ "فرائض خليل" على مكوار، كما قرأ عليه كتابه (دروس في الفرائض)،
- وقرأ عليه أيضا "أوضح المسالك"، بشرح الأزهري .
- وقرأ "الدُّرَر اللَّوَامع"، على مولاي الكبير، كما قرأه على سيد الحاج.
- وقرأ على سيد الحاج "متن الجَزَرية" .
- وقرأ "الاستعارة" و"المنطق"، على الشيخ الطاهري والزيتوني.
- وقرأ "حاشية بنَّاني" في المنطق على سيدي محمد ولد سيدي حسن الزَّرهوني، وكان هذا الشيخ يحفظ الحاشية والشرح والنظم عن ظهر قلب، وهذه الحاشية من أعْقد كتب الآ لة وأصعبها.
- وقرأ عليه "الْمُقْنع" في علم المواقيت، كما قرأه أيضا على الغازي الْحُسَيْني.

• وقرأ "ألفية ابن مالك" على سيد الهادى اخبيزة .
• وقرأ "نور اليقين" في السيرة على عبد الرحمن العراقي، كما قرأ عليه النحو والصرف،
• وقرأ علم السُّلوك على سيدى محمد بن الحبيب الشبيلى
• وقرأ أسلوب الْخَطابة على سيدي محمد بن العربي العلوي .
• وقرأ التّاريخ على علاَّل الفاسي كما قرأ عليه بعْض كُتُبه في عِلْم الْمقاصد.
• وقرأ "لامية العَجَم" و"لامية العَرَب" على عبد الهادى بوطالب، كما قرأ عليه بعض الأدبيات الأخرى.
• وقرأ كتاب : "قواعد اللغة العربية" على أحد فقهاء فاس الذي شرحه في ثلاث مُجلَّدات، ولعله مُؤلِّف "المنطق الجديد" عبد الرحمن الوردى، وهذا الكتاب نفيس ومُفيد للغاية جمع فيه مؤلفوه: النحو، والصرف، ومعانى الحروف، والبلاغة بأنواعها الثلاثة، بأسلوب بديع،

يُقرِّب الأقْصَى بلفظ مُوجَز   ويَبْسُطُ البَذْلَ بِوَعْدٍ مُنْجَز.

• وقرأ التفسير، والحديث، والحساب، والفلك، وجمع الجوامع، والمعلقات، ولامية الأدب، ومقامات الحريري، على أساتذة فاس، لم يحضرني ما قرأه على كل واحد من هؤلاء:

مولاي علي الشركى، ومزوار، ومولاي أحمد العربي، وسيدى عبد السلام بنَّانى، وسيدي العَربي التّازي، والزيتونى، ومولاي العربي العلوى.

وكان مغرما بمقامات الحريري ورموزها، ومفرداتِها، وألغازها، ولعله قرأها على أحد الآدباء البارزين، وهو الذي حببها له.

ومُعْجبا بقصيدة "بانت سعاد" و"البردة" و"الهمزية" وشروحها، ويعتني بِهذه القصائد قراءةً وشرحا، في ربيع النبوى.

هذه هي جملة العُلوم التي قَرَأها في فاس، والشَّخصيات العِلْمية التي قرأ عليها، مما وجدتُه بخط يده، أو ذكره أثناء دراستنا عليه .

وهناك فئةٌ أخرى من العُلماء قرأ عليهم في بيوتِهم وحلقاتِهم الخاصة .

والوالدُ يُقدِّر العُلماء ويَزورهم، ويتَفَقَّد أحوالَهم، ويقْضِي حوائجَهُم، ويصِلُهُم بأنواع التَّمر الْجَيِّدة، التي تأتيه من "تافلالت".

وأعظمُ شخصية تأثَّر بِها الوالد في فاس، هُو أبو الشِّتاء الصَّنهاجي لازَمَه كثيرا، وحَضَر دُروسَه الخاصَّة والعامَّة، النِّظامية وغير النِّظامية، وقرأ عليه كُتُبه ومؤلَّفاته، واكْتَسَب منه مَهارة ومَلَكَة فِقْهية كبيرة.

العودة إلى مسقط رأسه:

عاد الوالد – رحمه الله – مِن فاس إلى مَسْقط رأسِه بالسِّيفة، في 27 رجب 1368هـ، 26 ماي 1949 م - رَجَع من فاس وقد تغيّر سُلوكُه، وتبدّلت حَاله، لم يعُدْ ذلك الرَّجل الذي كان يَنْظر إلى الدُّنيا نظْرة العاشق الْولْهان، يَجمعُها ويلهَث وراء حُطامِها، ويشْتغل بها لَيْلَ نَهار، لم يَعُد ذلك الرَّجل الذي يَحْتكُّ بالرجال، ويُصارعُهُم في معْركَة الحياة طَلبًا للدُّنيا.

لم يعدْ ذلك الرجل الذي يَتَطَلَّع إلى المناصِب، وتولِّي الْمسْؤوليات.

أصْبح يَرَى نفْسه مُتمَيِّزا عن النَّاس في منْطَقَته، يَحْمِل فِكْرا غير فِكْرهِم، وهَمًّا ليس كهمِّهِم، وتطَلُّعا ليْسَ كتطَلُّعِاتِهم .

فالْمنْطقةُ أبناؤُها يشْتغِلون بالفِلاحَة والزِّراعة، وترْبيةِ الْماشية، وهي الْمَورد الرَّسمِي للأسواقِ الأسْبوعيةِ الْمُجاورةِ، بِالْخُضر والفَواكه صَيْفا وشِتاء، رَبيعًا وخَريفا.

نعمْ أبْناؤُها يقْرؤُون القرآن، وكثير مِنهُم مَن يَحْفظُه، ويتَعلَّمون المَبادئَ الضَّرُوريةَ مِن الدِّين، أمّا أنْ يتَخَصَّصُوا، ويدْرُسُوا العُلُومَ درَاسَةً أكَادمية، فَهذا

نَادِرٌ، ونادِرٌ جدًّا، أمّا أنْ يُهاجِرُوا لدرَاسةِ العِلْم في فاس، أوْمراكش، فهذَا أقلّ نُدْرةً مِن سابِقه.

رجَعَ الوالدُ إلى مَسْقطِ رأسِه، وهُو يَحْملُ مَعَه فِكْرتَين أساسِيتَين، ومَنْهَجَين عَظيمَين، ويتَمَنَّى أنْ يَعيش بِهما، ولَهُما، وعَليهِما طِيلَة حَياتِه، وإلَى أنْ يلْقَى ربَّه، وهُو عَلى اسْتعْداد أنْ يَتَخلّى عَن كُلِّ غالٍ ونفِيس مِن أجْل تَحْقيق هَذيْن الرَّغبَتَين :

الأولى: العلم، أُمْنيتُه أنْ يعِيش للْعِلْم، ومَعَ أهْل العِلْم، قراءةً ومُدارسةً وتدْريسًا،

الثَّانيةُ : العبَادة، مِن صَلاةٍ وصِيام وحِج، وقِراءَةٍ للقُرْآن، وذِكْر وخلْوة واعْتكَاف، وغير ذلك مِن أنْواع الطَّاعَات والقُرُبات.

أحَدُ هذَينِ الرَّغبتَين، لايُمْكنُه القِيام بِها في مَسْقِط رأْسِه، وبَيْن عَشِيرتِه، وأمَام ثَرْوته وأمْلاكِه، فضْلا عَنْ تَحْقيق الأُمْنيتَيْن مَعًا.

لذلك قرَّر مُغَادَرة مَسْقِط رأْسِه، وبَدأَ يَبْحثُ عنْ أرْض تؤويه، لِيُهاجرَ إلى الله ورسُولِه صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم،

والْهِجْرةُ شِعَارُ الدُّعاة والْمُصْلحِين، سَنَّها رسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْه وسَلَّم بِهجْرة الحَبَشَة الأُولى والثَّانية، وبِهجْرتِه صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم إلَى الْمدِينة.

بالهجْرة تَتَفجَّر الطَّاقاتُ الكامِنةُ في الدُّعاة، وتشِعُّ أنوارهم، لتنير للسالكين الطريق المستقيم، وتُهدي الحائرين، وفي الْهِجْرة يَجدون الأرض الخصْبة، التي تُلائِم بَذْرَتَهم النَّقية، لتُثْمر وتُنتج، وتُؤتي أُكْلها كُلَّ حين بإذن ربِّها.

ولله دَرُّ القائل: [الشافعي]

مافِي الْمُقام لِذي عَقْل وَذِي أدَب	مِنْ رَاحَةٍ فَدَعِ الأَوْطانَ وَاغْتَرِبِ
سَافِرْ تَجِدْ عِوَضًا عَمَّنْ تُفارِقُهُ	وَانْصَبْ فإنَّ لَذِيذَ الْعَيْشِ فِي النَّصَبِ
إِنِّي رَأَيْتُ وُقوفَ الْماءِ يُفْسِدُه	إنْ سَالَ طَابَ وَإنْ لم يجْرِ لَمْ يَطِبِ
وَالشَّمْسُ لَوْوَقَفَتْ في الْفُلْكِ دَائِمَةً	لَمَلَّهَا النَّاسُ مِنْ عُجْمٍ وَمِنْ عَرَبِ

وَالتُّرْبُ كَالتِّبْرِ مُلْقًى في أَمَاكِنِه وَالْعُودُ في أَرْضِه نَوْعٌ مِنَ الحطَبِ
فَإِنْ تَغَرَّبَ هَذَا عَزَّ مَطْلَبُه وَإِنْ تَغَرَّبَ ذَاكَ عَزَّ كَالذَّهَبِ

وقال ابن رشيد الفهري[77]:

فَغرِّبْ ولاَتَحفل بفُرقَة مَوْطِنٍ تَظْفَر بالْمنى في كُلِّ مَاشِئْتَ مِنْ حَاجٍ[78]
فلَوْلا اغْتِرابُ الْمِسْك مَاحَلَّ مَفْرِقاً ولَوْلَا اغْتِرَابُ الدُّر ماحَلَّ في التَّاجِ

الزواج الثاني:

لَمَا رجَع الوالد مِن فاس، قرَّر أنْ يتزوَّج، خاصة وأنَّ زواجه الأول لم يكن مُوفَّقا، لأنَّه لم يكن بِرضاه ولابِاخْتياره، وبناتُه الثَّلاث مِن الأولى، تُوفِّينَ كُلُّهُن، فتزوَّج بالوالدة – مِينة بنت العَربي – في التاسع مِن جمادى الثانية 1369 هـ 28 مارس 1950 م

كانت الوالدةُ إلى جانبه، تَخدُمه وترْعَى شُؤونَه، وتُهيِّء له بيتَه وفِراشَه وأكْلَه، وهي السَّاعد الأيْمن له في تَحْقيق مُبتغاه، ككُل الزَّوجات النَّجيبات الْمُتبعِّلات، وإلى جانب خدْمتها للوالد، هي أُم اولاده، رَزَقَهُ اللهُ مِنها 16 ولدا، ماتَ مِنهُم ثمانية، وبقِي مِنهم بَعدَ وفاته، وإلى كتابة هذِه السُّطور، أربعُ ذُكُور[79]، وأربعُ إناث[80].

والعُظماءُ لاتَثْبُت عظَمتهُم، وتصْمُد أمام الأعاصير، إلاَّبتَوفيق الله، وقُوة إيمانِهم ، وبِمُساعدة مَن حَوله، كعمود الخيمة، لاتَقوم وتَثبتُ إلاَّ بالأعمدة الجانبية، وبالحِبال.

---

(77) في ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة ، في الوجهة الوجيهة إلي الحرمين : مكة وطيبة، توفي في فاس 721 هـ 1321 م

(78) أي حاجة

(79) محمد (1377 هـ1957م)، عبد العظيم 1390 هـ (1970م)، محمد السني (1399 هـ 1979 م)، عبد الله (1405هـ 1985 م ...)

(80) صفية (للا خيتي) (1385هـ 1966م)، خديجة (1389 هـ (1969م، حسنة (1394هـ 1974م ...)، لطيفة 1396 هـ 1976 م

تفرغت الوالدة لزوْجها، فلاهـمّ لها إلاّخدْمتُـه، وطاعةُ ربِّها، لاتَعرفُ الدُّخولَ والخُروجَ إلى الجارات والصَّديقات، ولاتـعْرف تَجمُّعات النساء أولقاءاتِهن، ولاتُشاركهن أفْراحـهُن أو أحْزانَهن، ملازمة للبيْت، لاتَعْرف عَن العالم الخارجيِّ شيْئا.﴿وقرن في بيوتكن﴾[81]

إلى العشوريـة[82] :

لَمَّا قرَّر الوالد – رحمه الله – الخُروجَ من مسْقِط رأسِه، لتحْقيق رغَباتِه، والوصُول إلى مُبْتغاه وأُمْنياتِه، والتي اكْتسَبها عَن طَريق التَّعلُّم والدِّراسَة، والاحْتكاك بشُيوخ العلم والْمعرفة، هَيَّأ الله له قَصر "العَشورِية"، الذي يُوجَد بمرْكَزيَة "الجرف"، بإقليم الراشدية، ويَبْعُد عن السِّيفة – مسْقط رأْس الوالد – بحوإلى ثلاثين كلم، وهـذا القَصْرُ هو جَوهَرة تلك المنْطَقة وواسِطة عِقْدها، سواء من حيث معطياته الجغرافية، أو من حيث تركيبته البشرية المتميزة، هذا القصرهوالذي احتضن الوالد، واحتفى به أهله، ورحبوا به، وهيؤوا له الأرضية الخصبة التي كان يترجاها.

اتَّـفق مَع أعْيان هَذا القَصْر أنْ يكُون عنْدهم إماما – والإمام قديما يقوم بالإمَامةِ، والْخُطبة، والوعْظ والإرشاد، والإفْتاء، وفَضّ النِّزاعات الأُسَرية والعائلية والقَبَلِية– يَذكُر أهل القَصر أنَّ الوالد لم يطْلُب منهُم مُقابِل إمامَته بِهِم، سوَى الحَطَب والماء، وقليل من المؤونة، دون إلْزام، وإذا رَأى الحصِيلَة الفِلاحية ضعيفة، لايأخذُ شيئا تلك السَّنة، وما يَحْتاجه لِمعِيشَته يأتي به من بلده السيفة،

جاء إلى هَذا القَصْر في السَّنة التي تَزَّوج فيها زوَاجَه الثاني بالوالدة، 1369 هـ 1950 م وبِمُجرَّد اسْتقْراره مَع أُسْرته، فَتحَ بَيْته ومَكْتبَتَهُ لطَلَبة العِلم، وانْطَلَق في

(81) الأحزاب الآية 21

(82) العشورية : هي ضمن مجموعة من القصور المبنية على ضفتي نهر "غريس" وسكانها من "عرب الصباح" وتنتمي إداريا إلى مركز "الجرف" بدائرة" أرفود "وتبعد عنه بحوالي : 20 كلم ، وتخترق غابتها : الطريق الثانوية الواصلةبين دائرة "أرفود" ودائرة "تينجداد"

دُرُوسـه، مِن فقْـه، ونحْـو، وصَرْف، وأصول، وبلاغـة، وغير ذلك، كان يـعْـقد حَلقات خاصَّة، يحْضرُها طَلبَـةُ العِلْم والدَّارسون، الذين جاؤا مِن أنْحاء مُخْتلفَـة، مُتفرِّغين للعِلْم، وحَلقات عَامَّـة، يُـدرِّس فيها التَّـفسير، والحدِيث والفقه، يَحْضرُها الطَّلبة والأَساتِـذة وعامَّـة النَّاس، هـذِه الحَلقَات كَانتْ لها آ ثارُها الطَّيِّبَة على سُكَّان القَصر، علَّمتهُـم أُمورَ دِينهِـم.

وتَتَلْمَـذ علَيْه في هَذاالقَصر عددٌكبير مِن الطَّلبة، اشْتغَـلوا فيما بعدُ بِمناصِب مُتعدِّدة، منهُم مَن انْخرَط في سِلْك التَّـعليم، ومنْـهم مَن اشتغل في العدالة والقضاء، ومنهم من كان يدرس العلوم الشرعية واللغوية .

هـذا مِن جِهـة، ومِن جِهة أُخْرى اتَّخذ لنفسه مَنهَجا في طاعة ربـه، والتَّـقرُّب إليه بأنواع من القُرُبات، وألزم نفْسه ببرنامج لايَتْركه حِلاًّ وتِـرحالا، وحتى إذا ماترك منه شيئا لظُروف قاهِرة، عوَّضه بعبادة أُخْرى، أوْ في وقت آخر ﴿وهو الذي جَعل اللَّيل والنَّهار خِلْفةً لمن أرادَ أَن يذَّكَّر أَو أراد شُكورا﴾[83] [84]

احتكاكه بأقطاب الطَّريقة الدَّرقاويـة :

قصْرُ العَشورية الذي كان الوالدُ فيه إمَاما، كثيرٌ مـن رجاله يتبعـون الطَّريقـة الدَّرقاويَـة، ويُحافظُـون على أوْرادِها الْيوْميةِ والأُسبُوعيـة، والكَثيرُ منهُم يَحْفظُـها عنْ ظهْر قَلْب، يعْقِـدون لقاآت– تكادُ تكُون يـومية – في قِـرأءة هَـذه الأَوْراد، ويَحْفظون قَصائِد شُيوخِها، ويَـقْرؤُونَها ويُـردِّدونَـها في مُناسَباتِهِـمْ، حتَّى النسَاء يَحْـفـظْـن هـذه الـقصَائدِ والأوْراد، حفِظْـنا بعْضَـها أيَّـام الصِّغر منهن وهُـنَّ في مطْبخهِنَّ أو أعْمالِهنَّ اليوميـة.

يُـعقَـد في هذا القصْر لقاءٌ سَنويٌ لِهذ الطَّريقـة، يَحْضُره كِبارُ شخْصياتِها، مِن أنْـحاء مُتعدِّدة، اسْتفـدنا مِن دُروسهـم الوعْظيـة، وفتاواهـم، واسْتفـدْنا أكثر من هَدْيهم وسَمْتـهِم.

---

(83) سورة الفرقان 62

(84) ينظر مزيد تفصيل عن طريق تعبده ومنهجه في فصل لاحق

كانوا قِمَمًا عاليَـة في العِلْـم، إذا خَطَـبوا أَسْكتوا، وإذا وعَظُـوا أبْـكوْا وأثَّـروا، وإذا سُئِلوا أشفوا الغَليل وأقْنَـعُوا.

أَذْكُـر أَنِّي كُنتُ يوما بجانِب أحَدهـم، وإذا بأَتبَاع الطَّريقَـة قامُوا للحضْرة[85]، فقلْتُ لـه: ماهذا ياشيخ؟، قال هذا باطلٌ وضَلال، فقلتُ لهُ أفَـلا نقُوم معَهُـم، قال: إجْلسْ مكانَـك. وأَعْطَيتُ لأحدهم مَـرَّة جُزئا مِن "تفسير الكَاشف"، لِجَواد مَغْنية، وبعد أُسْبوع أَتَى بِـه إلَيَّ وقال: قرأتُه كُلَّـه، وهو تفسير مُفيد في جوانب مُتعدِّدة، لكن يَجب الْحَذَر من منْهَـجه العَقَدى الشِّيعى، الذي يدُسّه في غُضون التَّـفسير.

وكان شيخُ الطَّريقـة الدَّرقاويـة – محمد بن الحبيب – يَـزور هَذا القصْر ويَمْكُث فيه الأَيَّام والأَسَابيـع.

بِهذا تعرَّف الوالد على الطَّريقـة الدرقاويـة عَـن قُرب، ـ نَعـم كان مُقَدَّما لفَرْع منِها بِبلدِه – كما أَسْلفنا – لكن الوضْع هُنا يَخْتلف كَثيرا – فالطَّريقـةُ في بلَدهِ لاتَـنَبني عَلى علْم، وأَتبَاعُـها جُهّال، لاعِلْم لديْـهم، وأوْرادُهُـم وأذْكارُهم مُجانبة لـلصَّـواب لـفـظا وأَداءً، ـ تَـعَـرَّف الـوَالـد عَلى شخْصياتِهِـم العِلْمية، وحاوَرَهـم واسْتفْسَرهُم وناقَشهُم، واحْتكَّ بِهم حَضَرا وسَفَرا، عَلى رأْسِهم شيْخ الطَّريقة،

(85) الحضرة أمرها عندهم غريب، يقوم الحاضرون فيكوِّنون حلقة دائرية، يشُد بعضهم بيد الآخر، ويرددون بصوت مرتفع إسم الجلالة "الله" ويدخل مقدمهم داخل الحلقة، ويردد أبياتا شعرية بلحن خاص، تزيدهم حماسا ونشاطا، يستمرون على ذلك حتى يجن جنونهم، ويفقدون صوابهم، وحتى لايبقى يسمع من اسم الجلالة إلا "اه . أه . أه فتبح حناجرهم، وتنقطع أصواتهم، ويجلسون وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.
قال القرطبي في تفسيره عن أبي بكر الطرطوشي أنه لما سئل عن جماعة يكثرون من ذكر الله وذكر محمد. قال مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة. وما الاسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله. وأما الرقص والتجواد فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخد لهم عجلا جسدا له خوار. قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون. فهو دين الكفار وعُبَّاد العجل... وإنما كان يجلس النبي ﷺ مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار... ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر. أن يحضر معهم، ولا يعينهم على باطلهم. هذا مذهب مالك. وأبي حنيفة. والشافعي. وأحمد بن حنبل. وغيرهم من أئمة المسلمين. وبالله التوفيق.

يُلازمُه إذا زار المنطَقة، ويَزُوره في مقرِّه بمكناس، واقْتَنى كُتُبَهم ودَرَسها، دراسةَ الخَبير النَّاقد، وتَعرّف على شخْصياتِهم عَبْر التاريخ، واقْتنى وقَرأ كُتبا أُخْرى في عِلْم السُّلوك، والخالية مِن البِدَع، ك "مدارج السالكين" لِابْن القَيم، وكتاب السلوك من فتاوى ابن تَيْمية، و"مختصر منهاج القاصدين"، ومُؤلَّفات"العِز بن عبد السلام"، و"الغَزالي"، وأمْثال هؤلاء.

والوالد لم يكُن في اتِّباعه لهـذه الطَّريقـة كالأعْمى، يَسير سير قائده، ويهْضِم كلَّ ماقُدِّم لـه، دونَ أن يُميِّز بين ما هو حَق وباطِل، إنَّما كان اتِّباعُه اتِّباع الْمُتبصِّر الناقـد،إذا رأى خيـراوصوابا فهو معهُـم، وعلى منْهجِهـم، وهو في الحقيقة مع الحق، وإذا رأى مايُخالف الشَّرع توقَّف، بل ينْتقِد ويُغَير مااسْتطاع[86]، وكثيرا ماكان يردِد قول الْجُنَيـد "عَملُنا مضْبوط بالكتاب والسُّنـة، مَن لم يَحْفظِ الكتاب، ويكْتب الحديث، و لم يتفقَّـه، لا يُقْتـدى بـه" وقوله: "عِلْمُنا مُشبّك بِحديث رسُول الله صلَّى الله عليـه وسلـم"[87]

والدليلُ على أنّـه لم يكن ذائبا في الطَّريقـة ذَوَبان الْمِلح في الماء – كما قَدْ يتبادر إلى الذِّهن، وكما هُو معْروف لدَى أتْباع الطَّرق الصُّوفية – أنَّـه لم يكُن يظْهر عليه أيُّ أثَـر من آثارهِـم في الزَّيِّ واللباس، ولا أي تَصَرف من تصرُّفاتِهم، في الْمَنهـج والسلوك

فإذا رأيْتَـه رأيتَ عالما وَقُـورا، عليه هَيْبة العلم وجَلالُـه، زيّـهُ زيُّ العُلماء، وسَمتُـه سمْتُهـم، وجُلاّسُـه من أهْل العلم، ومعارفُـه وأصدقاؤُه هُم أيضا عُلماء، وحتى كُتُبُ الصُّوفيـة التي يقْتنيها ويقْرؤُها، لم تكُن من الكتب ذَات الْخُرافات والأَباطِيل، ولامِن الكُتُب التي تُقدِّس شخْصياتِـهم، إنَّمايَقْتَـني منها ماهُو هادفٌ وبنّاء، ك "الحكم العطائيـة" وشرُوحها، وكالكُتب التي تُـركِّزعلى بِناء النُّفوس وتَـهْذيبها،

---

(86) ذكر لي أحد طلبته : أن أتباع الطريقة الدرقاوية، وقراء "دلائل الخيرات" كانوا يقرؤون أورادهم داخل المسجد، فمنعهم من ذلك، وأخرجهم من المسجد،

(87) "سير أعلام النبلاء" للحافظ الذهبي الجزء 14 صفحة 76

ومعرفة عُيوبِها وأمْراضها، وككُتب الأَذْكار والدَّعوات، وكثيرا ماكُنتُ أسْمعُه يدْعوا الناس ويُرغِّبُهُم في لأذكَار والدَّعوات النَّبوية، ويَرشدُهم إلى "الأذكار النَّووية"، و"الوابل الصيبي" لابن القيِّم، و"الكَلِم الطَّيِّب" لابن تيمية، و"الْحِصْن الحصِين" للشوكاني.

على أنَّ الانتماء إلى طريقةٍ من الطُّرق الصُّوفية يومَها، لم يكن عَيْبا، ولا تَنقِيصا لشخْصية الْمُنتمي، ولاسُبة يُعيَّر بِها، بلْ كان الواقع يَفْرضُ ذلك، نظرا لاحْتواء هذه الطُّرُق على جُل أفْراد الأُمَّة، ولعلَّهم ينْتمُون لِمصالح دَعَوية، واجْتماعية، وقد تكون أمْنية وسياسِية، أو اتباعا لتيار عام، دون خلفية أو تَبيُّن، ولذلك رَأيْنا عَدَدا من العُلماء البارِزين ينتَمُون لهذه الطرق .

كانتِ الطُّرق الصُّوفية يومَها مُنتشِرة في المجتمع، كالجماعات الإسلامية في عصْرنا، وليسَ عَيْبا أن نرى شَخْصية عِلْميَة تَنتَمي إلى جماعَة إسْلامية.

في أوائل القرن الخامس عشر الهجري، والثمانينات من القرن التاسع عشر الميلادي، اعتزل الوالد هذه الطُّرق، واشتغل بذكره وقراءته وصلواته ودراسته، وإذا حضر لايَحضر إلا ضيف شرف، ليلقي درسا أو مُحاضرة.

من هو محمد بن الحبيب؟

هو عالم من عُلماء الأُمَّة، ورجُل من رجَالها الصَّالحين، حضرت بعض دُرُوسهِ ومُحاضَراتِه، في التَّفْسيروالحديث، فكَانتْ دُروسًا علْمِيه رَائعة، يسْتفِيدُ منها الطَّالب، كَمايسْتفيدُ العَالِم، تُحسُّ فيهَا بِجوْلات العُلمَاء الْموسُوعيِّين، الذين يَلامَسون في كَلماتِهم عُلوما عِدَّة، وفُنونا شَتى، وسَمعت معاصريه من العلماء يُثْنون على دُرُوسه ومُحاضَراته، ويَحْرصُون عَلى حُضورِها، ويأْتُونَها من مَناطق بَعيدَة، سَمعْتُ أحَدَهُم يقول: إنَّه تعَمَّد قِراءة ثُمُن مِن أجْزاء القُرآن، وقد طَالَعهُ في تَفاسِير مُتعدِّدة، ومِن عَادة الشَّيخ أنَّه إذا قُرئ شَيء مِن القُرآن في مَجْلسه، يَكُون هُو موضُوعَ الدَّرس، فَلمَّا شَرع الشَّيخ في تفْسير الثُّمُن الْمقْرُوء، ماذَكَر شَيئا مِمَّا قرأَهُ في تِلْك التَّفاسِير، إنَّما كَانتْ له جَوْلات وخَواطر، لاتَحضُر إلا للرَّاسخِين في العِلم.

وذكَر الوالد أنَّ هذا الشَّيخُ كان يقْبضُ في صَلاتـه، – والقَبضُ يَومَها نادِر في الْمغْرب – ومَرةً صلَّى الشَّيخ بِجانب أَمِير مِن أُمَراء البِلاد – وَكَان ذَا عِلْم – فَلاَمَهُ عَلى الْقبْض في الصلاة، فَعَقَد الشَّيخُ مَعَه جلْسَة خاصَّة، وناقَشَه في الْموْضُوع، مُناقَشَة عِلْمِية، بعيدة عَن التَّعصُّب الْمذْهبى، وأحْضَر له الأَدِلَّـة الوَاردَة في أُمَّـهات الكُتب، فاقْتَـنع الأَمِير بِسُنِّـية الْقَبض في الصَّلاة، وبِرُجْحانِه في الْمذْهب الْمالِكي.

ومَكْتبةُ الشَّيخ التي لاَزالتْ إلى الآن في مكناس، هي شَاهِدٌ ناطِقٌ عَلى سَعَـة عِلْمه، وتنوُّع معارفه

ذَكرتُ هذِه الإشَارات الْعِلْمِية مِن حَياةِ الشَّيخ – وهى غيْض مِن فيْض ؟ لأُبيِّـن أنَّ صِلَة الوَالد بِهَذا الرَّجل، هي العلم وأهله، لأن الشيخ من علماء المغرب البارزين

الْمُستعمرُ الفَرَنْسيُّ يُتابعُ تَحَرُّكاتِ الْوَالـد:

الوالد – رحمه اللـه– مِن طَلَبة القَرَويِّـين، والْحَركاتُ النِّضاليةُ في الْمَغْرب كَان يَتَزعَّمُها عُلمَاء مِن الْقَروِيِّين، وجامع بن يوسف، وهُـو يُؤمن بِشَرعِية الْمَلِك، ووُجُوب طاعَتِه، وبيْعتِه في الْمَعرُوف، ويُقدّر هَذِه الْمسْؤولية، ولِذلكَ كَانَ يَدْعُو الشَّباب إلى النِّضَال، ومُقاومَة الْعدُو الْمُسْتعمر، لتَحْرِيرالبِلاد مِنْ جَبرُوته وطُغْيـانه، ويدْعُوهُم إلى الوَحْدة والتَّعاوُن، ونبْذ الفُرقَة والنِّزاع، حَتَّى يكُونُوا يدًا واحِدَة تصُدُّ العدُو، وتُخْرجُه مِن البـلاد، ويُذكـرهُـم بأنَّ الـوَحدَة هى أَساسُ النَّصر ﴿واعْتصِمُوا بِحَبْل اللـهِ جَميعًا وَلاَتَفَرَّقُوا﴾[88]، وفي الْوَقْت نفسه كَان يَدْعـو لِلْمَلِك، ويَحُثّ الشَّبابَ في الكُتّاب، وَالأزقـة، على نُصرة الملك، والدعاء له بالعودة من مَنْفَـاه.

الْمُستعْمِر الفَرنْسِي عْلَم هَذا عَنْ طَرِيق جَواسِيسِه وأَعْـوانِه، والذينَ كَانُوا يُتَابِعُـون تَحَرُّكَات الْوالِد عَنْ قُرْب، ويَكْتُبُـون التَّقارِير عَن تَحَرُّكَاته وأنْشِطَتـه،

---

(88) آل عمران/ 103

والْحَدَث الذِي أَفَاض الْكأْس، هُو أنَّ الوَالد دَعَى للْملِك في أَحَد خُطَبه، وألَحَّ في الدُّعاء، وسَأل اللـهَ لَهُ الْعَودَة إلَى وطَنِه وعَرْشِه، وبَـكَى النَّاس في الْمَسْجد، وخَرَجُوا وهُم يَدعُون للْمَلك بِالنَّصْر في الأَ زِقَّـة.

في الْيَوم الْمُوالِي لِلْجُمعَة – السبت 26 ربيع الأول 1375هـ 11 نونبر 1955 م أُلْقِي عَليْه القَبض، وأُدْخِل السِّجـن.

كـان يَنـتـظِر هَذا اليَوْم مُنذ سَنوَات، ويَعْـلـمُ أنَّه مُتابَع مِن طَرف الْمُسْتعْمر وأَعْـوَانه، تَصِلُه أَخْبارُهُم ومَكَائِد هُـم، وأَنَّـهُم يتَحَيَّـنون الفُرصَة للقَضاء علَيْه، أوزَجّـه في السِّجن وتعْذِيبه، وبِما أنَّه خِريجُ جَامع القَروِيِّـين– وهُـم الأكْثر مُتابَعةً وحِراسَة – فـقـدْ أَتْـلَـف كُـل الـوَثـائِق التي لَـها صِلة بالقَروِيِّين، أَتْلَف وأحْرقَ شهاداتِها، وتزْكيات علمائها، والْمراسلات التي جرت بينه وبينهم،

سكَّانُ القصْر لم يقْبَلوا أن يُسْجَن إمامُهم – وهو مصْدر قُوتِهم الرُّوحِية والدِّينية – واعْتَـبرُوا هَذا إهَانة لَهُـم، ومَكِيدة دُبِّـرتْ بليل للوُصُول إليهِم، وإضْعاف قُواهُم، وهم في الْمنْطقة الأَقْـوَى شَجاعَة وإقْداما، وصُموداً ونِظامًا، والأَبْـرز سِياسة واقْتصادا.

قـرَّر أَهل القَصْر أنْ لايسْكُتوا عَلى هَذا الظُّلم اللاحِق بِهمْ وبإمِامِهم، فخَرجُوا في مُظاهَرة احْتِجاجية حاشِدة، شَارَك فِيها كِبارهُم وصِغارهُـم[89]، واتَّجهُوا بِجُموعهِم إلى الْجرف،– المرْكز الإدَارِي للمنطَقة–.

لَمَّا رأى الْمُستعْمِـرتلك الْجُموعِ الْحاشِدة، وهُم يُكبِّـرونَ، رافِعِين شِعارَات تُندّدُ بالْمُسْتعْمر وطُغْيانِه، وأُخْرى تُطالِب بِعَودَة الْمَلك إلَى بَلَدِه وعَرْشـه.

خَاف عَلى نفْسِه وَإدَارَتـه، فطَلَب النَّجْـدة مِن الثَّـكَنات العَسْكَرِيَـة، وعَلى وجْـه السُّرعَـة، أحاطَ الْجَيش بالْجمْع، وأدْخلوهُم إلى السِّجن، وبعْد التَّحْقيق معهُم،

(89) ذكر لي أحد سكان القصر، أن النساء كـن أشد شجاعة من الرجال، حتى إنهن خرجْن إلى باب القصر مُحْتجَّـات، يقُلْـن للرجال : إمـاأن تخرجوا للجهاد والمقاومة، أو اعطونا عمـائمكم وسلاحكم لنقاوم مكانكم، فخرج الرجال يحملون السيوف والهراوات

أُفْرج عَن أغْلبهم، وأَمْسَكوا الرؤُوس الْمُدبِّرة، وعلى رأسهم الوالد، وهُنا نَزلَت الْمِحْنَةُ بالقَصْر وأهْله، كما سنرى في فصل لاحق.

الوالد في السجن

أُدخِلَ الوالدُ السِّجْن رُفْقَة أَعْيانِ القَصْر، وحافظ على شَعائرِه التَّعَبُّدِية أَحْسَنَ قِيام، يَؤُمُّ النَّاس في الصَّلوَات، ويُعَلِّمُهُم أَحْكام دِينهِم، ولَمْ يَظْهَر عَلَيه خَوفٌ أَو اضْطِراب، بَل كَان السِّجْن لَه كَما قالَ ابْن تَيْمِية رَحِمَه الله- سِجْني خلْوة - وكَانتْ وُفودُ الزائِرينَ تَتْرى عَلَيه مِن الْجِهات الْمُجاوِرَة، الشَّيء الذِي أَقْلَق حُرَّاس السِّجن، فقنَّنُوا أَوقات الزِّيارَة، وحددوا مواعيدها،

أُفْرجَ عَنه في أواخِر جُمادى الثَّانية مِن السَّنةِ نفسها.

مِحْنَةُ سُكَّان قَصْر العشوية

علِمْنا فيما سَبَقَ أَنَّ سُكَّان القَصْر نَظَّموا مُظاهَرةً إحْتجَاجِية، عِندَما سُجِن الوالدُ، وعَلى إِثْرها طَلَب الْحاكِم النجْدَة مِن الْجَيش، وجاء الْجَيشُ، فأَحاط بالسّجنِ والإِدَارَة، وإقامَة الحاكِم وأعْوانِه.

هُنا وجَد الْحاكِم الفَرنْسِي الفُرصَة، ليُنْزل بِالقَصْر عُقُوبة تَكْسِر شَوكَته، وتُذلّه لِيَركَعَ صاغِرا للإدارةِ البَاغِية، فَفَرضَ عَليهِم جِبايات، وأَلْزَمهُم بِكُل مايَحْتاجُه الْجَيشُ مِن مَؤُونة.

فَرضَ عَليهِمْ كُلَّ يَوم عَددًا مِن الأنْعام - الغَنَم والْبقَر- لِذَبْحِها لِلْجَيش، وعدة أوسق مِن الدَّقِيق الْجَيِّد الصَّافي، والذي تُهَيئُه نِساءُ القَصْر، فيقُمْن بِغَسْل القمح، وتَنقِيَته، وطَحْنِه، وغَرْبلَتِه، كما فَرضَ عَليْهم عَددًا مِن قارُورَات الزِّيتِ، والسَّمن، والعَسَل، بالإضافةِ إلى الدَّجاج والبيض والأَغْطِيَة، وفَوقَ هَذا أَلْزَمهُم بِقدْر كَبِير مِن الأَموالِ، لَعلَّها للْجَيْش كَتعْويضَات، أو لِشرَاء بَعْض حاجِياتِهِم الخاصَّة.

يَأْتِي كُل يَوم بِشاحِناتِه وحَرَسِه إلى بابِ القَصْر، فيحْمِل ماهُو مفْروضٌ عَليهِم في ذلِك الْيَوم، ويَتَوعَّدُهُم بالعِقاب إن لَم يُهيِّؤُوا ما طُلبَ مِنهُم لليَوْم الْمُوالي.

ويُنْذرُهُـم بعِقاب شَديدٍ في نِهاية المطاف، وهو أنَّه يأتي بالطَّـائرات، والدَّبابات، فيُزيلُ القصْر من الأرْض، ويَنْسِفه نسْفا.

صَبرَ السُّكَّان وناضلوا واحْتسَبوا، ﴿وإن تصْبروا وتَتَّقوا لايضركُم كَيدُهُم شيئا﴾[90]، وبَذلُوا كُلَّ ما يَملِكُون، و لم يُظهِروا للعَدوِّ ضعفا، أو جُبْنا، أوفقْرا واحْتياجًا، مما أثارَ اسْتغْراب الْحاكِم مِن جِهة، ورهْبته وخوْفه منهُم من جِهَة أخْرى، صَمَدُوا على ذلك حَتى أُفْرِج عَن الوَالد ومن معه.

أكْسبهُم هذا الْموقِفُ البُطولي إجْلالا واحْترَاما، ومَهابةً وإعْظامًا، وأَبدلَ اللـه هَذهِ الْمحْنة مِنْحــة، وأصْبحَ القصْر في الْمنطَقة رمْز النِّضال والتَّضْحية، ورمْـز الوَفاء والصُّمود، ومِن ثَمَرَات هذِه النازِلة، أنَّـه أَولُ قصْر في إقلِيم الراشِدِية أُدْخلَتْ لهُ الكَهْرباء العامَّـة، تقْديرا لِوفَائِهِمْ، وجَزاء لِنضَالِهم.

جزاهُم اللـهُ أَحْسَن الْجَزاء، وأسْكن مَوتاهُم في أَعالِي الْجِنان، وأَصْلحَ شِيبهُـم وشبابَهُم، ورجالَهُم ونسَاءهُم، وصِغارهُم وكِبارهُـم.

الوالـدُ يُحـاضِرُ بِالْجـرف:

لَمَّا طهَّـر اللـهُ البلادَ مِن الْمُسْتعْمِر الفرنْسِي، ورجَع الْملِكُ إلَى بِلادِه وعَرشِـه، وعَادَتِ الإدَارةِ بيدِ أَبْناءِ الوَطَـن، يَقُومُون بتسْيِـيرها دِينِيا، وسِياسِيًّا، وتَرْبوِيا، واقْتصَادِيا، وأَمْنِيا، طُلبَ مِنَ الوَالِد أنْ يُلْقِي مُحاضَرات مُنتظِمَـة، مَرةً في التَّفسِير أو الْحَدِيث، وُأخْرَى في السِّيرةِ أَو التَّاريـخ، وتارَةً في الفِقْـه والنَّوازِل، والإدارَةُ الْمركْزِيَـة بالْجرف هي التي تُهَيئُ لِهذِه الْمُحاضَرات مَكانًا عَاما، وتَدعُو النَّاس إلى الْـحُضـور لَـها، وتُـنـادى بـذلِـك في كُـل الـقُصُور الْمُجاوِرة، فيـحْضُرُها الطَّلبَة والأَساتِذة، والإدارِيُّـون، والأئمَّة والْخُطَبـاء، وعامـة النـاس

وأَصْبحَتْ هَذهِ الْمُحاضَرات لَها إِشْعاعٌ كَبِير عَلى الْمنْطقَـة، وصدى طيب، وآثارٌ مَلمُوسَـة، ونَفَـع اللـه بِها البِلاد والعِباد.

---

(90) آل عمـران الآيـة: 120

وبذلكَ صارَ الوالد مقْصد النَّاس في قَضاياهُم الدِّينِية، ومرْجِعهُمُ الأَساس في النَّوازِل والفتْوى.

العَوْدةُ إلى مَسْقِطِ رَأسِه:

لَمَّا أحَسَّ الوالدُ بالوَهَن الصِّحِّي، والضعْفِ الْبَدَني، النَّاتِج عَن كِبَر السِّن، وثقُلَ عَليهِ التَّنَقُّل بَيْن العَشُورِيَة ومَسْقِط رأْسِه بالسيفة، والتي كان مُتَعلِّقا بها، ويَزورُهَا كَثِيرا، قرَّر أنْ يَعودَ إلى مَسْقِط رأْسِه، وأَرْض آبائِه وأَجْدادِه، إلى الأَرْض التي احْتَضنَتْهُ أيَّام طُفولتِه وشَبابه، ولعَلَّه يقْصِد أيْضا أنْ تكُون هي الأرض التي تَحْتضِنُه في جَوفِها بَعْد وفَاتِه، لأَنَّه لَمَّا اسْتقَرَّ بِها، حبَّس أرْضا لِتكُون مَقْبرةً عامَّة، وعَيَّن بِها قَبْرا لهُ، بعْدَ أنْ بدأ النَّاسُ يدفنون فيها موتاهم، وأشرف شخصيا على حفره وتهييئه[91].

نَزلَ هَذا الْخَبرُ علَى سُكَّان قصْر العَشُورِيةِ ثقيلا، وتأَسَّفوا وتَحَسَّروا، وكأَنَّهُمْ فَقدُوا أَباهُم، وكان حَقًّا أَباهُمُ الرُّوحِي.

والذي خفَّفَ آلامهُم، هُو أنَّه تَرك لَهمْ خَلفا، وجَدوا فِيه بعْض الأُنْس والرَّاحِة.

وودَّعهُم بِجِسْمِه وشَبحِه، ولم يُغادِرهُم بروحِه وفُؤادِه.

وظلَّ وفِيًّا لهم، يَزورُهُم، ويتَفقَّد أَحْوالَهُم، ويُشارِكُهُم أفراحَهُم، كما يُشارِكُهُم أَحْزانَهُم.

---

(91) من لطيف الإشارات التي لاينبغي تَجاوزها في هذا الصدد، أن الوالد رحمه الله كان يضع الموت نصب عينيه منذ فترة مبكرة من عمره، وقد استقدم معه كفنا من حجته الأولى كما تقول الوالدة سنة: 1377 هـ 1958 م وكان حريصا على هذا الكفن، إذ كان يأمر الوالدة الكريمة بتفقده بين الفينة والأخرى، حتى لاتأكله الأرضة، وعوارض الترهل، بسبب التقادم، من خلال إخراجه إلى الشمس، ورشه بالعطر، وكان دائم السؤال عن هذا الكفن، خاصة إذا همت الأسرة بالانتقال من منزل إلى آخر، وتذكر الوالدة أنه يبالغ في توصيتها بالاعتناء بالكفن، خشية أن يضيع عند الرحيل من سكن إلى آخر، وظل الأمر كذلك، إلى أن توفاه الله، وتم تكفينه في هذا الكفن، الذي أمضى عندنا في البيت أكثر من خمسين سنة، تنفيذا لوصيته الكريمة رحمه الله.

واسْتقرَّ بِ"السِّيفة" إماما بقَصْر "اولاد يَحْي"[92] وذلك في أَوائِل سنة 1399 هـ 1979م

وبقَصْرِ "أولاد يَحْي" استأْنَف نَشاطَهُ العِلْمِي والدَّعَوي، يُلْقِي دُروسًا في العُلوم الشَّرعِية لِطَلَبَة العِلْم وأئمَّة الْمساجِد، وأُخْرَى عامَّة في الْمسْجد، يُفسِّر فِيها القُرآن والسُّنة، ويُفقِّهُ النَّاس بأَحْكام عِباداتِهِم، ومُعامَلاتِهِم، وأَنْكِحتِهِم.

وحافَظَ على مَنهَجِه التَّعبُّدِي الذي أَلْزَم بِه نفْسَه قَديما.

وأضافَ نَشاطا ثَالثًا؛ وهُو أَنّه أَصْبحَ يُراقِبُ أَمْلاكَه وضَيْعاتِه، وواحاتِ نَخيلِه، يَتَعَهَّدُها بالْخِدْمة والسَّقْي والقَلْب والْجَنْي وما إلى ذلك، بوَاسِطَة عُمَّال يسْتأْجِرُهُم ويُتابع أعْمالَهُم.

الاسْتِقْرارُ بِمَكْناس:

لَمَّاعَجَز الوالِدُ – رحِمَه الله – عَن العَملِ لِكِبَر سِنِّه، ووَهَن أَعْضائِه، وضعُفَتْ حَواسُّهُ: مِن سَمْعِهِ وبصَرِه ولِسانِه – وهي أَدَواتُ الإِبْلاغ لَدَى الإِمام والعَالِم– وأصْبحَ التَّحرُّك عَليْه ثَقِيلا، وصُعودُ السَّلالِم، أو الْخُروج إلى جَنَبات القَصْر، أو السُّوق عَليهِ صَعْبا، كَما صَعُب عَليْهِ جَلبُ ضَرُورياتِ الْبَيْت،

انْتَقل إلى مَدينَة "مكْناس" مَع أَفْرادِ أُسْرتِه، واسْتقَرَّ بأَحَد أَحْيائِها (مرجان 2)، وذَلك في أواسط جمادى الثاني 1423 هـ وأوائل شهر غشت 2002 م

ومَكناس تَربطُه بها رَوابط قديمة، يَزور فِيها بعض شَيوخه، ويَرتاد مَكْتباتِها لاقْتناء الكُتب وما جَدَّ فِيها، وفِيها بعْض زمَلائِه في الدِّراسَة، وبعْض أَفْراد أُسْرته وعائِلته، بالإضَافَةِ إلى أنَّ "مكناس" هِي البَوَّابَة الأُولى لأَهْل "تافيلالت"، ولِذلِك فهي تَضُمُّ عَدَدًا كَبِيرا مِن الأُسَرالفِيلالية، حتَّى العادات والتَّصَرُّفات في "مكناس" قريبة الشَّبه ب"تافلالت"، فالقَادِم إليها، للتَّسوُّق أوالسُّكْنى لايَشعُرُ بالغُربَة والوَحْشة.

لما استقر ببيته في "مكناس" حافظ على شَعائِرِهِ التَّعبُّدِية أَحْسَن قِيام، يُصلِّي الصَّلوات الْخَمْس في الْمسْجد مَع الْجَماعَة، والْمَشْيُ إلى الْمسْجِد يُتْعِبُهُ كثِيرا،

(92) هو أحد قصور جماعة السيفة

حَتى إنَّهُ ليجْلِس لِيسْتريح في الْمشْيةِ الوَاحِدة مرَّات، ويَعُود مِن الْمَسْجدِ مُنْهَك القُوَى، يَكادُ قلْبُه يَتوقفُ مِنْ توالي دقاته، ويَكادُ أنْ يَخْتنِق مِن شِدَّة التَّنَفُّس، وإذا طُلِب مِنهُ أنْ يسْتَريحَ لِيُصَلي في الْبَيْت لايَقْبل، وهَذا الأَمْر لوْ لم يكُن تَعوَّد عَليه في قُوَّتِه وصِحَّتِهِ، ما اسْتطاعَ أنْ يقوم بِهِ الآن "من شب على شيء شاب عليه"[93]

وذكَر لِي بَعْض الطَّلبَة بمكناس أنَّه بَدأ معَهُم شرح "ألفية ابن مالك"، و"المرشد المعين"، و لم تُسْعِفْهُ الصِّحةُ أنْ يواصِل مِعهُم، أما مُطالعَة الكتب ومراجعاتُها، سواء في مَكْتبَتِهِ التي اصطحبها معه إلى مكناس، أو في غيرها، فإنه لم ينقطع عنها حتى أواخر أيامه.

وفاتــه :

قبلَ موْت الوالد – رحمه الله – بخَمْسةَ عَشَر يوما 29 شوال 1426 هـ (1 دجنبر 2005 م)، نزلتْ بهِ وعْكَة صِحِّية، فَجِئْتُ بهِ إلى "الدار البيضاء" لِمُعالَجَتهِ، وفي الطَّريق صَلَّى صَلاتَه، وتَناوَل طَعام الغَداء في إحْدَى الْمَحَطات، كَعادَتِه في أَكْلِه الْجَيِّد، ورِغْبَتِه فِيهِ،

رَأى عِندِي في هَذِهِ الزيارَةِ رسالَة "الْمَسْح عَلى الْخُفَّين"[94]، فتصَفَّحَها وأَعْجَبَتْه، فأَخَذَها لِتَكونُ في مَكْتبتِه، وليقرأها فيما بعد، وهِي آخِرُ رسالة تَصَفَّحَها وقَرأ بَعضَ فُصُولِها.

---

(93) في صحيح مسلم 654 عن أبي الأحوص عن عبدالله قال : من سره أن يلقى الله غدا مسلما فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن، فإن الله شرع لنبيكم صلى الله عليه وسلم سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته، لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور، ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد، إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة، ويرفعه بها درجة، ويحط عنه بها سيئة، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق، معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى به يُهادَى بين الرجلين حتى يقام في الصف.
(يهادى بين رجلين) أي يمسكه رجلان من جانبيه بعضديه يعتمد عليهم.

(94) ألَّفها عالم الشام الشيخ جمال الدين القاسمي، ومعها تمام النصح في أحكام المسح للالباني، وقدم لها الشيخ أحمد محمد شاكر، وحقق الشيخ الألباني رحم الله الجميع، وهي غاية في بابها،

بعْد أُسْبوع عادَ بهِ أَخِي إلى "مكناس"، فلحِقْتُ به في التَّوِّ واللَّحْظَة .

عَشِيةَ يوم الثلاثاء 11 ذي القعدة 1426 هـ (13 دجنبر 2005 م)، أَتَيْتُ لَه بكُرسي متحرك، لأَحْمِلَه عَلَيْه إذا أَرادَ أَنْ يتَفسَّحَ خارجَ الدَّار، صبيحَةَ يوم الأربعاء – وبعْدَ أنْ أخْرجْتُه مِن مُسْتَحَمّهِ، وأخَذ فُطورهُ وأَدْويَتهُ – وضَعتُه عَلى الكرسي المتحرك، وألْبسْتهُ سِلهام صُوف، ولفَّفْتُه فيه، خوفا عليه من ضربات البرد، وعِندَ ما أَردتُ دَفْعَ الكرسي بِه، طَلَب مِنِّي عُكّازهُ، ناولتُهُ إيَّاه، فَشدَّهُ بيدِهِ وكأنَّه يَمْشِي علَى رجْلَيْه، ويَسْتَعينُ به، جُلْتُ بهِ في بعْضِ الشَّوارِع، وذهَبتُ بهِ إلى أَرْضٍ فِلاحِية خَضْراء، ليتفسح وينعم بِخُضرتِها.

قُبيلَ الظُّهْر، عُدتُ بهِ إلى البيْتِ، فصَلى الظُّهر، وتناول غَدَاءهُ، ونامَ حَتَّى العصْر، بعْد أنْ صَلَّى العصْر، زاره بعْضُ أقاربِهِ، مِن بيْنهِم "إبن الصَّديق"[95]، وهومن الخُلّصِ الأَوفِياء للوالِد خِدمَةً وطاعة، لَمَّاسلّم عَلى الوالد، أَمْسَكَه بيَدِهِ جيِّدا، وحَلقَ فيه بِعَينَيْه، وأَطالَ في ذلك، حَتَّى أشْفقْتُ عَليه، فأَزلتُ يدهُ منه، وأَلْحَحْتُ عَلَى ابن الصديق أنْ يَرْجِع في الْيوْم الْموالي لِيتَناولَ الغدَاءَ مَعَنا، لأنَّ الوَالِدَ لَمْ يشْبَعْ منْهُ نظَرا، وقدْ غابَ عَنهُ مُنذُ مُدَّة، وإذَا بهِ لَمَّا جَاء ضُحَى الْخَميس لِلْغدَاء، وجَدَ الوالِد قَد انتقلَ إلى رَحْمةِ ربِّه، فَهَمَسَ في أُذُنِي: أَنَّ الوالدَ كَان أوْصاهُ مُنذُ سَنوات أَنْ يُغَسِّلهُ بَعْدَ مَوْته، فسُبحان مَنْ يُدبِّرُ الأُمورَ كَما يَشاءُ، ومِمَّن زَارهُ في هَذا العَشِي ابنُ أَخِيه[96]، أَخَذَهُ عَلَى الكرسي المتحرك، وأَخْرجَهُ إلى جانِبنَا ونَحْن نَشْربُ الشَّاي، فأَعْطَيْنا الوالِدَ كأْس شاي، فأَشارَ أَنْ لاَ.

وقُبَيْل فَجْرِ يَومِ الْخَمِيس، (15 دجنبر 2005 موافق 12 ذو القعدة 1426 أَيْقَظَتْهُ الوَالِدة، فصَلَّى صُبحَه، واسْتَراحَ كَأَحْسَن ما تَكُون الرَّاحَة، عِندَ الضُّحَى كشفْتُ عَن وَجْهه، فوجَدتُه يُشرِقُ نورًا،كانتْ بِوجْهِهِ حُمْرةٌ، فَعادَتْ بَياضًا مُنِيراً، حَتَّى اسْتفْسَرتْني الوَالدةُ عَنْ ذَلك، وارْتَخَتْ أَعْضاؤُهُ ومَفاصِلُهُ ولاَنَتْ، وحلَّق بِعَيْنَيه،

(95) فلاح من أقارب الوالد ومحبيه
(96) هو السيد محمد الصغيري

وإذا بالرُّوحِ فاضَتْ إلَى ربِّها، دُون أَدْنى حَركـة، خَرجَتْ رُوحُه كَسَلِّ شعْرةٍ مِن الْعَجيـن ﴿وجوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضاحِكَة مُسْتَبْشِرَةٌ﴾[97].

صلَّيْنا عَلَيه في "مَسجِد الإخلاص" بمرجان 2 ، بمكنـاس بعْد صَلاةِ الْجُمُعة، وشُيّعَ إلَى قبره بِمَقْبَرَة "السَّباتة"، جِوارالأَكَادِيمية العسْكرية بمكناس، في جنازةٍ مهيبةٍ، حَضَرها عَدَدٌ كَبيرٌ مِن الْمُؤمِنين، وطَلَبَةِ الْعِلْم والفُقهَاء، وقِيلَتْ عِنْد قَبْره كَلماتٌ مؤَثِّـرة، ودُفِن بِجوارِ أَخِيه الأَصْغر (الحاج العرْبي)، وابْنةِ عمَّتِه (لالة زِّي).

ذكَر لي أَحَدُ أَقَارِبِـنا، أنَّ الوالدَ زارَ قَبْـر أَخِيه قبْل مَوتِهِ بِشُهور، ورَأَى مَكانًا فارِغًا بِجِوار قَبْر أَخِيه، فَقال: هَذا الْمكانُ يصْلُح لِقَبر جَيِّد، وفِعلاً كان المكانُ قَبراً، والذي دفن فيه هُو الوالد –رحمه اللـه–، وجعلَه لَهُ روْضةً مِن رِياضِ الْجَنَّـة.

رأيتُ الوالدَ في الْمَنام وأَنَا أُحَرِّرُ هذِه السُّطور، وقَدْ أخَذَ مِني عِطْرا نفِيسا، صار يُعَطِّـر بهِ ثِيابَـه الدَّاخِلية والْخارِجية، وإذَا بشَخْص بجانِبِي يَقول لي: هَذا الرَّجلُ مِن الذِين قال اللـه فِيهِم: ﴿إنَّ الذِينَ سَبقَتْ لَهُم مِنَّا الْحُسنَى أُولائِك عَنها مُبعَدُون، لاَ يسْمعُون حَسِيسَها وهُم فِيما اشْتَـهَتْ أنفُسُهُمْ خالِدونَ، لايَحزُنُهُمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ، وتَتَلقَّاهُـمُ الْمَلائِكَةُ هَذا يومُكُمُ الذِي كُنتُمْ تُوعَدُون﴾[98]، ورَدَّدَ صدْرَ الآيةِ مـرَّارا.

تلاميذُ الوَالِــد:

بِما أنَّ الوالدَ – رحمه اللـه – عمَّر كثيـراً، واشْتغَل بالتَّدْريس مُدَّة طَويلَةً[99]، تتلمذ عليه عدد كبيرمن الشباب، ومِن مَناطِق مُتعَدِّدة، إلاَّ أنَّ هَؤلاءِ الطَّلبة، مِنهُم مَن تابع الدِّراسَة حتَّى قطَع أشْواطا هامَّة، واسْتفاد منْ مَوادَّ عَديدَة، ومِنهُم مَن وصل إلى مُنتَصَف الطَّريق، فَانْقَـطع عَن الدِّراسَة، ومِنهُم مَن اكْتفى بالْمَبادِئ الأُولَى، كالأَجَرُّوميةِ والْمُرشِد الْمُعين، ومنْهُم مَن يأْتِي بِحَماس قَوي، فتَقْطَعُـه عَن

(97) سورة عبس 38– 39

(98) الأنبياء/ 101

(99) تفرغ الوالد للتدريس مجانا مدة تزيد عن ستة عقود

الدِّراسَـة ظُروفٌ عـائِليَة أواقْتِصادِية، ويَوْمَـهـا لم يَكُن هُناك سِجِـلٌّ يُحْصيهِم، ويُسجِّلُ أَسْماءَهُم، ولِذلكَ انْقطَعتِ الصِّلةُ بِهِمْ، ومعْرفة أَخْبارِهِـم، إلاّ مَنْ كانَ وفِيًا لشيخه – وهُمْ قِلَّة –، ظـلَّ يتَردَّدُ عَلى الوَالِدِ لزيارَتِـه.

يُمْكِنُ أنْ أَحْصُرَ تلاميذَهُ في طَبقَاتٍ ثَـلاَث:

الطبقـة الأولى:

وهِي الفِئـةُ الأُولَى التي دَرَسَت عَليْـه، قرأُوا عَليهِ في أواخِرِ عَهْد الْحِمايَةِ و بِدايَـة الاِسْتِقْلال، هَذِه الطَّبقَـة اسْتَفادَتْ مِنهُ كثِيرا، واشْتغَلَتْ بَعدَ ذَلكَ في مناصب سامِية، وفي قِطاعَات مُتعَدِّدة، في التَّـعلِيم، وفي القَضاء، والعَدَالة، وفِي الدَّاخِلية -، ومِنهُم مَن اشتغل في التدريس، أَذكُر مِن بَينِـهـم:

"مـولاي الهـادي"، "السـيـد محمـد الشريـف"، "عـمر بوبكـري"،"عبـد الرحمن بلامين"، "بن الطاهرالسعيدي"،" الطالب محمد"، "مولاي علي ولد با سيدي".

الطبقة الثَّانيـة:

جُلُّـهُم اشْتغَل فِي الإِمامةِ والْخُطبةِ والوَعظِ والإِرشَاد والتَّدْريس، مِن بَينِهِم: "محمد فؤاد"، "يوسف" الحاج الْمَهدي بباخويا"، عبد اللـه الإدريسي، عبد الكبير العلوي ، الأستـاذ الحسن، أحـمـد صـغيري، الحاج عبد الرحمن صغيري ، محمد صغيرى، كاتب هذه الرسالة

الطبقة الثالثـة:

هَذِه الطَّبقَةُ هي عَلى منوال الطبقة الثانيـة:

مـن بينـهـم "محمـد الإدريسي"، "أبـو يـاسـر محمـد الإدريسـي"، "محمـد النـوايتى، الإراري"، "باحني"، "محمد بن الهاشمي"، "حسن بشار"، "عبد اللـه رودري"، "عبد الكريم صغيري" حفيد المترجَم لـه.

مناقبه وفضائله

- من فضاءله
- حبه للسنة ودفاعه عنها
- حبه للادعية النبوية
- كراماتـه
- شخصية الوالد
- عبادتـه
- عزلتـــه
- حديثـــه
- موقفه من الصحوة
- فقهـــه
- مع تفاســر القرآن
- شأنه مع السياسة
- أعمالـــه
- تربيته لأولاده
- الكتب المحببة إليه
- الشخصيات المعجب بها

للوالد فضائل:

أكرم الله الوالد ـ رحمه الله ـ بفضائل عظيمة، وقِيَم سامية، وأخلاق عالية، رزقه الله بِها حُب المؤمنين والمؤمنات، يشتاقون لدروسه وخُطَبه، ويسْتأْنِسون بالجلوس معه، ويهْرعون إليه عند الملمات، لِنُصْحِهم وإرْشادِهم.

فمن فضائله: أَنَّه كان يصل مُحبِّيه، تارة بالعطاء، وتارة بالزيارة، يتحمل متاعب السفر، ومشاق الطريق، وصعوبة التنقل، ويزورهم في مُدُنِهم، وأماكن أعمالهم،

ومن فضائله: أنه رحيم بالمؤمن المصاب، يُقاسمه آلامه، ويبذل مافي وسعه لإزالة كُرْبته، ولايبخل بما عنده ليُخفف عنه، وكثيرا مايتمثَّل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الراحمون يرحمهم الرحمن، إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"[100]

في أول ليلة بعد وفاته ـ رحمه الله ـ ليلة الجمعة 13 ذي القعدة 1426 / 16 دجنبر 2005 اجتمع أولاده وأحفاده، وأقاربه، وأصهاره، وطلبتُه ومُحبوه، وكان جَمعا حافلا، ضم مايقارب 300 نفر، والليلة من ليالي الشتاء، فبات الناس يتحدثون عن فضائل الوالد ومناقبه، وأُلقِيت كلمات مؤثرة، أدار الجلسة وانتقى المتكلمين أحد اولاده، فهمس ابن أخيه[101] في أُذُني وقال: قَضَى عمي حياته ساكتا، وكلامه جد محدود، وفي أول ليلة بعد وفاته، تحدثوا عنه بما لم يتكلم به هو في حياته كلها.

وله ـ رحمه الله ـ فضائل أُخرى، رأيت أَن أُخصص لها الفصول الآتية :

---

(100) الحديث في مسند الامام أحمد وسنن الترمذي وأبي داود، وصحيح الجامع الصغير ج 2 ص 661
(101) هو عبد العزيز الصغيري، وهو الآن استاذ بإحدى الثانويا ت بمدينة مكناس

حُبُّه للسُّنة ودفاعُه عنها

كان الوالد ـ رحمه الله ـ مُحِبا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، يدرس سيرته، ويتحدَّث عن غَزوا ته، ويجتهد أن يتاسَّى برسول الله صلى الله عليه وسلم، في أَكْله وشُربه، ونومه ويقظته، ويقول إن أعظم مُحفِّزللتأَسِّي برسول الله صلى الله عليه وسلم في كل شيئ، هوقراءة "زاد المعاد" لابن القيم الجوزية، ولشدَّة حُبه للنبي صلى الله عليه وسلم، سَمَّى ولدين له باسم "محمد" وأضاف لواحد منهما "السُّني" ولشغفه بكتاب "الترغيب والترهيب" للحافظ عبد العظيم المنذري ، ـ وهو كتاب سنة، ـ أَسْمَى ولدا له باسم الحافظ "عبد العظيم" ثم مات هذا الولد، ووُلد له ولد آخر فأسماه أيضا "عبد العظيم"

وإذا رأى مايخالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، غضب واحمرت وجنتاه، حتى في السنن العادية، كالشرب باليسرى، والأكل بها، والشرب أثناء اللأكل، والشرب واقفا، وتقديم الرجل اليسرى عند الدخول إلى المسجد أو البيت،

ومرة كان في مائدة مستديرة مع مفتش عام في وزارة التربية الوطنية، فسقَطتْ ذُبابة في كأْس أمام المفتش العام، فأراد أن يُريقه، فقال له الوالد: لاتُرقه، بل اغمس الذبابة واشرب، فإنه لايضُرك، فإنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا وقع الذُّباب في شراب أحدكم فليغمسه، ثم لينْزعه، فإن في إحدى جناحيه داء، والأخرى شفاء"[102] فقال المفتش: هذا كَذِبٌ وافتراء على النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يمكن أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا الكلام، والذُّبابة من الحشرات التي تنقُل المكروبات، فغضب الوالد وقال له : أقول لك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتكذبني، وأنا أعلم معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، "من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار[103]، فأسْرع الوالد في حينه إلى مكْتبته وأتى بأجزاء "إرشاد الساري" شرح البخاري للقسطلاني،

---

(102) أ حرجه البخاري من حديث أبي هرية رضي الله عنه ، كتاب "بدء الخلق" باب اذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه فإن في إحدى جناحيه داء، وفي الأخرى شفاء

(103) متفق عليه

فقال له : أنا على يقين تام من وجود الحديث في هذا الكتاب، وفي الجزء كذا، فأَخْرجه منه إن استطعت، فوجِم الرجل، وخرس لسانه، فأخرج الوالد له الحديث، وقرأه وشَرْحه على الحاضرين، وأحْضرمعه بَحْثا عِلْميا في الموضوع، نُشر في إحْدى المجلات،

ومن حرصه على إحياء سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ماعرف عنه - وإلى اليوم - في المساجد التي يرتادها كثيرا، من حرصه على صيغة الصلاة الإبراهمية، أن تُؤدى وتُذكر بالألفاظ الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، في أحد الصحيحين ، دون زيادة أو نقصان، ويُحبذ رواية البخاري وهي: "اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، ويقول: إن الصلاة الإ براهمية المترددة في المساجد على ألسنة الناس والأئمة والخطباء[104]، جَمعت في ألفاظها بين روايتي البخاري ومسلم، وزيادة "في العالمين" وهذا لايليق، والذي ينبغي هو أن تقرأ رواية مسلم كما هي[105]، أو رواية البخاري كما هي،

حُبُّه للأدعية النبوية:

من حب الوالد رحمه الله للنبي صلى الله عليه وسلم وسنته، تعَلُّقُه بأقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم حِفْظا وشرحا، ومن هذا الباب حِفظه للكثير من أدعية رسول الله صلى الله عليه وسلم، يَتَرنَّم بِها، يُناجي بِها ربَّه في مِحرابه وخَلَواته، ويقنت بِها في تَهَجُّده وقيامه، ويدعو بِها في الْمجامع والْمحافل،

(104) الصيغة الواردة على الأسنة هي "اللهم صل على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم، وعلى آل سيدنا إبراهيم ، وبارك على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، كما باركت على سيدنا إبراهيم، وعلى آل سيدنا إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد.

(105) رواية مسلم هي "اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على ءال إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد" 405

ويتَسَلّى بها في أَزَماته، ويتَحَصَّن بها في شَدَائِده وأَسْفاره، يَختار من الأدعية أَطْولَها وأَجْمَعها، يتَصيَّدُها في أُمَّهات الكُتُب والْمَصادر، إنْ ظفر بدُعاء جامع حَفِظَه وأَتْقنه، وتغَنَّى به، ورَفَع به صوْتَه أمام أَولاَده وطَلَبَته وفي مَجامِعه،

وأَمْتَعُ كتاب لدَيْه في هذا الباب: "الأذكار النووية"، يَملك منه عدة نسخ خطية ومطبعية، و"الحصن الحصين"، بالإضافة إلى كُتب الأدعية في السُّنن والصِّحاح،

ومما يمتاز به في هذا الصدد، أنه كان إذا سَمِع طالبا يدعو بالمأثور، اسْتَمع له وأَنْصت، وأَمَّن على دعائه بخشوع وابْتهال، يُحِب أَنْ تكون السكينة والخشوع أثناء الدعاء، ولا يَقْبَل أن يرفَع الْمستمعون أَصْواتَهم ولو بالتَّأْمين،

ومِن أَدْعيته وابْتهالاته التي حفظناها من فيه:

اللهم ياسابغ النِّعم، ويا دافع النِّقَم وياكاشف الظُّلَم، ياأَعْدَل مَن حَكَم، ياحسب من ظلم، ياوَلِيَّ مَن ظُلم، ياأَوَّلُ بِلا بِداية، ياءاخِرُ بِلا نِهاية، يامَن لاتراهُ الْعُيون، ولاتُخالِطُه الظُّنون، ولا يَصِفُه الواصِفون، ولاتُغيِّرُهُ الْحَوادث، ولا يَخْشَى الدَّوائِر، ويَعْلم مثاقِيل الْجِبال، ومكائِيل البِحار، وعدَدَقطْر الأَمْطار، وعدَدَ وَرَقِ الأَشْجار، وعدد ماأظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار، ولاَ يُوارِي مِنهُ سَماءٌ سَماءً، ولا أَرْضٌ أَرْضا، ولابَحْر ما في قَعْرِه، ولاجَبَلٌ مافي وعْرِه، اللهم اجْعَلْ خَيْرَ عُمُرِناآخِرَه، وخَيْرَ عَمَلِنا خَواتِيمَها، وخَيْرَ أَيَّامِنا وأَسْعَدَها يوم أَن نلْقاكَ فيه[106]،

اللهم أَنْتَ أَحَقُّ مَنْ ذُكِر، وأَحَقُّ مَن عُبِد، وأَرْأَف مَن مَلَك، وأَجْوَدُ مَن سُئِل، وأَوْسَعُ مَنْ أَعْطَى، أَنْتَ الْمَلِكُ لاَشريكَ لَكَ، والْفَرْدُ لانِدَّ لَك، كُلُّ شَيْئٍ هالِكٌ إلاَّ وجْهَك، لَنْ تُطاعَ إلاَّ بإِذْنِك، ولَنْ تُعْصَى إلاَّ بعِلْمِك، تُطاعُ فَتشْكُر، وتُعْصَى فتغْفِر، أَقْرَبُ شَهِيد، وأَدْنَى حفِيظ، حُلْتَ دُونَ النُّفوس، وأَخَذْتَ بالنَّواصِي، وكَتَبْتَ الآثَار، ونَسخْتَ الآجَال، الْقُلُوبُ لَك مُفْضِية، والسِّرُّ عِنْدَكَ عَلانية،

---

(106) هو في "المعجم الأوسط للطبراني" و"مجمع الزوائد" عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بأعرابي وهو يدعو في صلاته بهذا الدعاء، ووصفه بأنه : "أحسن الثناء على الله عز وجل"

الحلال ماأحْللت، والحرام ماحَرَّمت، والدين ماشرعت، الأمر أمرك، والخلق خلقك، والعبد عبدك، وأنت الله الرؤوف الرحيم[107]،

اللهم إني أسألك رحمة من عندك، تهدي بها قلبي وتجمع بها أمري، وتلم بها شعثي، وتصلح بها غائبي، وترد بها ألفتي، وتصلح بها أحوالي، وتقضي بها حاجاتي، وتغنيني بها عن رحمة من سواك،

اللهم لك الحمد، أنت قَيِّم السماوات والارض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السماوات والارض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت رب السماوات والارض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك حق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد صلى الله عليه وسلم حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمنا، وبك ءامنا، وعليك توكلنا ، وإليك أنبنا، وبك خاصمنا، وإليك حاكمنا، فاغفر لنا ماقدمنا وماأخرنا، وما أسررنا، وما أعلنا، وماأنت أعلم به منا أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شي قدير[108]

اللهم إني أسألك إيمانا دائما،وأسألك قلبا خاشعا، وأسألك علما نافعا، وأسألك يقينا صادقا، وأسألك دينا قيما، وأسألك العافية من كل بلية، وأسألك تمام العافية، وأسألك دوام العافية، وأسألك الشكر على العافية، وأسألك الغنى عن الناس، اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم يالطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادر، قبل نزولها، وعند نزولها، وبعد نزولها، مع رضاك الأكبر، رضى تاما لاسخط بعده أبدا، أن لاإلـه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين[109]،

اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، احيني ماكانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك

(107) هو في "المعجم الكبير للطبراني" من حديث أبي أمامة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أصبح وإذا أمسى دعا بهذه الدعوات

(108) هو في صحيح البخاري، 1069 باب التهجد بالليل،

(109) أصله في مصنف ابن أبي شيبة أن أبا الدرداء رضي الله عنه كان يدعو به

كلمة الحق في الغضب والرضى، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيما لاينفد، وأسألك قرة عين لاتنقطع، وأسألك الرضى بعض القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، من غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زيني بزينة الإيمان، واجعلني من الهداة المهتدين، سلما لأوليائك، وحربا على أعدائك، أحب بحبك من أحبك وأطاعك، وأعادي بعداوتك من عصاك وخالف أمرك، اللهم إني أسألك حبك ، وحب من يحبك، وحب العمل الذي يقربني إلى حبك[110]،

رب أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامْكُرْ لي ولاتمكر علي، واهدني ويسر الهُدى لي، وانصرني على من بَغَى عَلي، رب اجعلني لك شكّارا، لك ذكارا، لك رهّابا، لك مِطْواعا، لك مخبتا، إليك أواها منيبا، رب تقبل توبتي، واغسل حَوْبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة صدري[111]،

وكثيرا ما يتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى، ويدعو قائلا: اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى، وصفاتك العلى، وأسالك باسمك العظيم الأعظم، الذي إذا دعيت به أجبت، وإذا سئلت به أعطيت

اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حُكْمك، عدْل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميتَ به نفسك، أوانزلته في كتابك، أوعلمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي[112]،

---

(110) أصله في مصنف ابن أبي شيبة، والسنن الكبرى للنسائي، والمستدرك على الصحيحين، وصحيح ابن حبان،

(111) الدعاء في السنن الكبرى للنسائي، وصحيح ابن حبان، والمستدرك على الصحيحين، وسنن الترمذي وأبي داود وابن ماجه، عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو بهذا الدعاء.

(112) هو في مصنف ابن أبي شيبة، والمستدرك على الصحيحين، والمعجم الكبير للطبراني، ومسند الإمام أحمد، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ماأصاب مسلما قط هم أو حزن، فقال: اللهم إني عبدك ألخ إلا أذهب الله همه، وأبدله مكان حزنه فرحا،

ويعجبه أن يتوسل إلى الله بأسماء الله الحسنى عن طريق قصيدة "أحمد بن عبد العزيز الهلالي" التي يقول فيها(*):

بَدأْتُ بِبِسْمِ اللهِ فِي أَوَّلِ السَّطْرِ فَأَسْمَاؤُهُ حِصْنٌ مَنِيعٌ مِنَ الضُّرِّ
وَصَلَّيْتُ فِي الثَّانِي عَلَى خَيْرِ خَلْقِهِ مُحَمَّدٍ الْمَبْعُوثِ بِالْفَتْحِ وَالنَّصْرِ
إِذَا اسْتَفْتَحَ الْقُرَّاءُ فِي مُحْكَمِ الذِّكْرِ فَبِاسْمِكَ ياذا الْعَرْشِ يَسْتَفْتِحُ الْمُقْرِي
إِذَا نَابَنِي خَطْبٌ وَضَاقَ بِهِ صَدْرِي تَلاَفَهُ لُطْفُ اللهِ مِنْ حَيْثُ لاأَدْرِي
وَلاَ سِيَمَا إِذْ جِئْتُهُ مُتَوسِّلا بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى الْمُعظَّمَةِ الْقَدْرِ
فَيَا اللَّهُ يَارَحْمَنُ إِنِّي لَذُو فَقْر وَأَنْتَ رَحِيمٌ مَالِكَ الْخَلْقِ وَالأَمْرِ

إلى أن قال:

بِأَسْمائِكَ الْحُسْنى دَعوْناكَ نَبْتَغِي رِضَاكَ وَلُطْفاً فِي الْحَياةِوفي الْقَبْرِ

وتعجبه "الدعاء الناصرية" التي مطلعها:

يَامَنْ إِلَى رَحْمَتِهِ الْمَفَرُّ وَمَنْ إِلَيْهِ يَلْجَأُ الْمُضْطَرُّ
وَيَا قَرِيبَ الْعَفْوِ يَامَوْلاَهُ وَيَامُجِيبَ كُلِّ مَنْ دَعَاهُ
بِكَ اسْتَغثْنا يَامُغِيثَ الضُّعَفا فَحَسْبُنا يَارَبِّ أَنْتَ وَكَفَى

كراماته

للوالد ـ رحمه الله ـ كرامات، أكرمه الله عز وجل بها، لعلها من بركة قربه وحبه لربه، أذكر لك أيها القارئ بعضها:

في أول حجته سنة 1377هـ 1958 م ولما ذهب إلى المسجد النبوي، وصلى تحية المسجد، قصد الروضة الشريفة، للسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه، فاحْتار في معْرفة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، واسْتفْسر أصحابه ومرافقيه، فلم يهْتدوا إلى معرفته، وإذا بشخص وقف أمامه وقال له: تعالى أريك قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه، فأخذ بيده حتى أراه القبر النبوي وصاحبيه، فالتفت إليه الوالد ليشكره ويجازيه، فلم يجده، قال: وكأنه ملك أرسله الله إلي.

(*) للوالد شرح مختصر على هذه القصيدة

- وفي حجة سنة 1404 هـ 1984 م قال لي ضابط كان مصاحبا له في هذه الرحلة[113]، لَمَّا وصلوا إلى المدينة النبوية، استراح الضابط قليلا، وإذا به رأى في المنام قائلا يقول له، قم وتطهَّر، واطلب من رفيقك الحاج محمد أن يأخذك إلى المسجد النبوي، ليعلمك آداب الزيارة، فلما استيقظ قال له الوالد: هيا بنا للمسجد النبوي لنسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه.

- في إحدى اعتكافاته، نزل إليه بعض أحفاده، فأعطاهم عِنبا من أجْود العِنب وأحْسنه، ولم يكن الوقت وقت عنب، ولا وجود له في أسواق الحي، فقال له أحد أحفاده: من أين لك بِهذا ؟ فقال: هو من عند الله.

- في سنواته الأخيرة، طَلبتُ من أمي أن تسْتأْذنه في السفر إلى الديار الْمقدسة،

لأداء مناسك عمرة رمضان، فاستأذنَتْه وأنا أسمع، فقال لَها لا، فقالت ولم ؟ فقال: إني كبرتُ ووهنَت قُواي، فأنا الذي أسافر لأداء العمرة، وربما ستكون الأخيرة، وأما أنتِ، فستعتمرين مرات، ويسَّر الله له ولها، فاعتمرا معا في السنة نفسها، وهي آخِرَ عمرة للوالد، وهاهي الوالدة اعتمرت بعده مرات،

- ومما أكرمه الله به، أنه إذا قرأ على شخص يعاني من مرض، شافاه الله على الفور، خاصة آلام الرأس، وكم من مرة آتي من السفر، وبي صداع شديد في الرأس، فيضع يده على رأسي، ويقرأ شيئا من القرآن ويدعو، وإذا بالألم يزول ، وكان عدد من أقاربه يقصدونه ليرقيهم[114]،

- أحد محبيه كان في صراع مع بعض خصومه، فخرج الوالد ووجد جماعة كبيرة من الناس تطعن في الرجل الْمُحب للوالد، فوقف وقال "شاهت الوجوه" وقرأ ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾[115] فانْهزم ذلك الجمع، وولَّى مُدبِرا، ذلك الرجل كان ولازال يقول : إن ذلك من بركات الوالد.

---

113) هو الحاج إبراهيم أمين، كان ضابطا في القوات المساعدة ،

(114) رُقياه كانت لأقاربه فقط، ويكره أن يتخذها الإنسان حرفة، كما كان يكره أن يرقي المصروع، وإذا طُلب منه ذلك يمتنع، ويحذر طلبته من ذلك ،ويقول إن غوائل التعامل مع الجن خطيرة ، وعواقبها وخيمة.

(115) سورة القمر، الآية 45

ـ ومما أكرمـه اللـه به عند وفاتـه:

أن الذي غسله، أوصاه منذ سنوات أن يتولى غسله بعد وفاته، وإذا به جاء قُبيْـل الوفاة لزيارته، وكأنَّـه جاء ليُغسِّله، ولو لم يَحضر في تلك الساعة، لكان من الصَّعْـب إحْضاره، والوصية بغسله لم تكن في عِلْمنا، حتى أَخبرني بِها الْموصَى

ـ المكان الذي أُقبـر فيه، رآه قبل وفاته بيسير، واسْتحسن أن يكون قبرا، فحقق اللـه رجاءه، ووضعه في المكان الذي أعْجبـه،

وبمجرد ماتُـوفي أحضر له أحَـدُ الأفاضل[116] جالونا من ماء زمزم ليُـغسَّل به، مع عِطْـر نفيس،

ولما مات ، سُمع أطفال الحي يقولون : "مات أحد أولياء اللـه الصالحين".

ـ بعد وفاته ـ رحمه اللـه ـ بأربعة أيام، ذهبتُ لأداء مناسك الحج والعمرة، و أوَّل مَحطـة لنا، هي المدينة النبوية، قرأتُ ختمة من القرآن في المسجد النبوي، وعند الختم حضر معي رفقاء لي، وكانوا حوالي خمسين واحدا، عند الختم والدعاء، تذكرت الوالد، وأن أول صدقة أقدمها له بعد وفاته هي هذه القراءة والدعوات، وشاءت إرادة اللـه أن تكون بالمدينة النبوية، فتأثر الجمع تأثرا بالغا، ودعوا اللـه له ولوالديهم وعامة المسلمين بالرحمة والمغفرة، هذه الجلسة النورانية، في بلد النور والايمان، من بركات الوالد،

شخْصِيةُ الْوالِـد:

رزق الله للوالد – رحمه اللـه – شخْصِية قَوِية، ونفْسِية عالِية، يعْتنى بمظْهره ومَلْبسِه وعِطْره، لايَلِـينُ لأَحَد من المغرورين بالدنيا مَهْـما عَلا شأْنُـه، ولا يُطأْطِئُ رأْسه له، ولَوكَان سَيِّـدا مُطاعًا، أوملِكا مُتَـوَّجا، حضرْتُ مَعهُ وقَد زَارهُ وُزراءُ، وضُبَّاط سَامُون، وجِنِرَالات، ووُجهاء وأثْرِياء، فَمايَزيدُ عَلى أَنْ يُكلِّمهُـم كَلامًا

(116) وهوأخي الآستاذ الفاضل : خـالد بوشنتـوف،

عاما، ويُسلِّم علَيهِم سَلاما عَادِيا، ثُم يَشتغِلُ بِحالِه، مِن ذِكْر أو قِراءةٍ أوْ صَلاة، دُون أنْ يُعيدَ الالْتِفاتَ إلَيهِم، أَوسَماع كَلامهِم، رأَيتُ وزير القُصور الْمَلكية، جَاء لِيُسلِّم عَليْه، فصَافَحهُ مُصافَحةً عادِية، واشْتغلَ بحالِه، ورَأيْتُ عَلى شَاشةِ التَّلفَزة (القناة الأُولى المغربية) وزير الأَوقاف يُقلِّدُه وِسامًا مَلَكِيا، وهُو مُعْرِض عَنه، كَأَنَّه يُقلِّدهُ لِشخْص آخَر، وبَعْد تَقلِيده إِياهُ أنْصرَفَ دُونَ أَنْ يُسلِّم عَلى الوَزِير، ومَرةً زَارتْ أمُّ الْمَلِك الراحل الْمَسْجدَ الذِي كَان فِيه، فَسأَلَتْهُ عَن ابْنِه مُحمدٍ أَيْن هُو؟ فَقال لَها مَاذا تُريدِين مِنه؟ قَالتْ: أُريدُهُ شَخْصِيا، فَقال اذْهَبي فابْحَثي عَنهُ أَيْنَ هُو، واشْتغَلَ بذِكْره، ولَم يَلْتفِتْ إلى خَدَمِها وحَشَمِها، يَذْكُرُ ابْنُ أَخِيه أَنَّهُ ذَهَبَ مَعهُ مَرَّة إِلَى القَصرِ الْمَلَكِي، لِزيارة أحَدِ مُحِبِّيه، وهُو ضَابِطٌ كَبِيرٌ فِي الْحَرَس الْمَلكِي، وعِندَ بَاب الْحَرَس الْمَلكِي، أوقَفُوه لِيُشاوِرُوا عَنهُ، ويتعرفوا على هويته، فأَعْرضَ عَنهُم ووَضَع سَجَّادَتَهُ بِجوَار بَابِ الْحَرَس الْمَلكِي، واشْتغَل بصَلاتِهِ ومُنَاجَاتِه لِربِّه، وكانَتِ الْحِراسَةُ جِدّ شَدِيدَة عِندَ ذَلك الْمَكان، فاشْتغَل بصَلاتِه كأَنَّ الْمَكَان لا أَحَدَ فِيه، حَتى خَرجَ إلَيْه الضَّابط مُهَرولا، وانْتظَرهُ حَتى أَتَمَّ صَلاتَه، وأَدْخَلهُ مُعزَّزا مُكرَّما، واعْتذَر لَهُ عَمَّا فَعلَ الْجُنود،فَسُبحانَ مَن يُعِزُّ مَن يَشاءُ، ويُذلُّ مَن يَشاء، ﴿إنَّ الذينَ ءامَنوا وعَمِلُوا الصَّالِحَات سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَن وُدًّا﴾[117]. ﴿قُل اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْك تُوتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ، وتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشاءُ، وتُعِزُّ مَن تَشَاءُ، وتُذِلُّ مَن تَشَاءُ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[118]. رَوى مُسلِم مِن حَديث أَبِي هُريرَة رَضيَ اللهُ عَنهُ قال: قَال رسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وسلَّم: إنَّ اللهَ تَعالَى إذَا أَحبَّ عَبداً دَعا جِبريلَ عَليهِ السَّلام فَقال: إنِّي أُحِبُّ فلاَنا فأَحِبه، فيُحِبُّه جِبْريل، ثُم يُنادي فِي السَّماء فيقُول: إن الله يُحِب فلانا فَأَحِبوه، فيُحِبهُ أَهْل السَّماء، قال ثُمَّ يُوضَع لَهُ القَبُول في الأَرض"، وأَورَد القُرطُبي فِي تفْسِيره، عَن هرِم بن حيان أَنَّه كَان يَقول: "ما أَقبلَ أَحَد بقَلْبِهِ عَلى اللهِ تَعالى، إلاَّ أَقْبَل اللهُ تَعالى بقُلوب أَهْل الإيمان إليه، حتَّى يَرزُقَه مَودتَهُم ورَحْمتَهُم[119]

(117) مريم/ 96

(118) آل عمران / 26

(119) تفسير القرطبي الجزء 11، صفحة 168، مطبعة دار الحديث.

هـذا هـو حـالـه مـع أهـل الـدنـيـا والْـمـغـروريـن بـهـا، أمـا أهـل الفضـل والكـرم، والمتسابقون في فعل الخيرات، فإنه يُحبهم حُبا عظيما، ويُجلهم إجلالا مُنقطع النظير، يدعو لهـم، ويُبارك أعْمالهم، ويترحَّم على مَوتاهُـم،

ولاَ يَقبَل أنْ يُرَى في مَجْلسِه ما يُخِلُّ بالْمُروءة، أو يَخْدشُ في الْحَياء، فلاَ يقْبَـل مَثلا أنْ يَستَرسِل النَّاس في الضَّحِك الْخارِج عَن الصَّواب، والْمُفضِي إلى القَهْقـهَةِ والتَّمايُل، ولاَ أنْ تَرتفع الأَصْواتُ بالقِيل والقَال بما لاَ فائِدةَ فِيه، ويَصيحُ في النَّاس: أنَّ النبي صَلى اللـه علَيهِ وسَلم نَهَى عَن قِيل وقَال، وكثْرة السُّؤال، وإضَاعة الْمال[120]،

ولا أنْ يُدخِّـن أحدٌ بِمجْلِسه، ولو شمَّ رائحتَها ولَو مِن بَعِيد، أمَر بإزالتِـها، وحاسَّةُ الشَّم عندَه قَوية وحساسة، وإذَا رَأى تَصرُّفا مُشينا في مَجْلسه، إمَّا أن يَصيح صَيحة قَوية لإزالَتِـه، أوْ يعْبَسُ في وجُوهِهِـم عبْسَةَ الغَاضِب، أو يُوَلِّيهـم ظهْرهُ وينْحازُ إلى زاوِية، فيشْتغِل بِذكْرِه وصَلاتِه، وقَد يتَصرَّف تصرُّفًا قاسِيا إذا لَم يَجِدْ آذَانا صَاغِـية.

لايُشارِك النَّاسَ في مَجالِسهِم إذَا كَانُوا يتحَدَّثون عَن الدُّنيا وشوَاغِلها، أوْ يتـحَدَّثونَ عَن فُلان وعِلان ، غالِبا مَايكُون بَينَ النَّاس، فتَظُنُّه معَهُـم ، يسْمعُ حدِيثهُم، وإذا بِـه هُو في تسْبيحه أو صَلاتِه، وكَم مِن شَخْص يَدخُل فيذْهَب لِيُسلِّم عَليه فلاَ يرُدُّ عَليه السَّلام، لأنَّـه في صَلاة، فإذا أَتَمَّها نادَاه وكلَّمهُ.

مَجْلسه مَجْلس هَيْبة ووَقار، ومَجْلس عِلم وحَياء، لا يقْبَل قَطْعا أنْ يَخْلوَ مَجْلسُه مِن ذِكر اللـه، ويَروِي في ذلك قَولَ رسول اللـه صلى الله عليه وسلم، مِن حَديثِ أبِي هُريرة وأبِي سَعيد: "ما جَلس قَوم مَجلسا لَم يذْكُروا اللـه فيه، ولَم يُصلُّوا على نبيِّـهم، إلاَّ كان عليهِم ترة[121]، فإنْ شَاء عَذبَهُم، وإنْ شاءَ غفَر لَهُم"[122].

(120) رواه البخاري 2277 ومسلم 1715 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

(121) ترة بمثناة فوقية وراء مفتوحتين ، أي حسرة وندامة،

(122) الترمذي وابن ماجة، صحيح الجامع الصغير/ ج2 ص 981

يقرأُ في مَجْلسهِ سُورة "يــس"، أو"الملك"، أو "الواقعـة"، أو"الفاتحة"، وإذا رأى طَالب عِلْم حاورهُ في مَسألة عِلْمِية يَطْرحُها هُو للنِّقاش.

نَعَـم إذا رَأى في الْمَجلِس رجُلا صَالحاً، أو ذا عِلْم، طَأْطَأَ لهُ الرأْسَ، وهَشَّ وبشَّ في وجْهِه، وسَامَره وآنسهُ.

عبادتــه :

عبادةُ اللـه عِند كثْرة الفِتن والشُّبهَات، واشْتغال الناس بِمتاع الدُّنيا ومَلذَّاتِها، وتنافُسهِم في كمالاتِها، تضعُف وتقِل، وتفْقِد روحها ومَغْزاها، وحتَّى مَن أدَّاها أدَّاها أشْباحا بِلا أرْواح، وطُقوسا جَوفاء، لاَ تتْرُك في العَابِد ثَمراتِها، ولا تُعطِي في الْمُجْتمع نَتائِجَها.

والبعْضُ الآخَر يُؤدِّيها بفُتور ومَلل، وكأنَّها ضَريبةٌ أُرغـمَ عَليْها، وقَد يُؤدِيها آخَرونَ رِياء وسُمْعة، ورَغْبة في اكْتِساب مَودَّة النَّاس، ﴿وإذَا قَامُوا إلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ ولاَ يَذْكُرونَ اللـهَ إلاَّ قَلِيلاً ﴾[123].

العبادةُ في مثل هذه الظُّروف، ومع مثل هؤلاء الناس، شديدة وصعْبة علَى النفس، ولذا قال رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم من حديث مَعْقل بن يسار "عبادةٌ في الهَـرج والفـتنة كهـجرة إلـيَّ"[124]

الوالدُ – رحمه اللـه – وهو يعِيش في هَذا الْخِضَم، مَن أحْسن النَّاس عِبادة وطاعة للـه، ما رأيتُ في عَصْرنا هَذا مَن يقْرب عِبادته، فَضْلا عن أن يُماثلـه، إنَّما قرأْنا عَن ذلك في شَخْصِيات سَلَف هَذِه الأُمَّـة.

أمْتع شيءٍ عِنده هي الصَّلاة، يَجِـد فِيها أُنسَـه ورَاحَتـه، وبُغيَتـه ومُناهُ، يَفزَعُ إليهَا في صِحَّتـه ومَرَضِـه، وعُسْره ويُسْره، وشِدَّتـه ورَخائِـه، إذا دخَل في الصَّلاةِ

(123) سورة النساء الآية: 143

(124) صحيح الجامع الصحيح الجزء 2 صفحة 736

نسِي نفْسه ووَقْته، وأكْلَه وشُرْبه، وكُل ما يَدُور حَوله، ترى فيه قولَ رسول ِاللهِ صَلى الله عليهِ وسَلمَ ماثِلاً في الصَّلاة: "أرِحْنا بِها يا بلال"[125]

وقوْلَ رسُولِ الله صَلى اللهُ عَليهِ وسلَّم مِن حَدِيث أنَس: "حُبِّبَ إليَّ من دُنياكُم النِّساء والطيب، وجُعلتْ قُرة عيني في الصلاة"[126]

كنتُ أخْرج مَعهُ عَلى الأَقْدام لِقضَاء بعْض مَصالِحه، فِي وَاحَاتِه ونَخِيله ومَزْرعَته، أو زِيارةِ بَعْض أَقاربه، فإذَا رَأى ظِلَّ شَجرةٍ، أوْ نَخْلة، أوْحَائطٍ، أو رَأى مِياها جَارية بِخَريرِها، أوْ مَكانا أَعْجَبَهُ، وقَف وصَلى فِيه رَكَعات، ثُم يُواصِل السَّير، وقَد يَتكرَّر هَذا فِي الْخَرجَة الوَاحِدةِ مَرات.

وإذَا كُنا فِي الطَّريق عَلى دَراجتِه، يقِف ويُصلى مِن النَّوافِل مَا شَاء الله، ثُمَّ إذا حَضَر وقْتُ صَلاةِ الفَرض، يَقومُ ويُؤذِّن بصوتٍ مُرتفِع، وكأنَّه عَلَى مَنارةٍ، وُيقِيمُ الصَّلاة بِصوْت مُرتَفِع، ويُصلي تِلك الصَّلاةَ الْحاضرة، وكَأَنَّه يؤُمُّ النَّاس فِي مَسْجِد جامِع، وهَذه السُّنة الْمنسية تَشهدُ لَها أَحادِيثُ مُتعَددة، مِنها: حَديثُ أبِي سَعيدٍ الْخُدْري رَضِي الله عنه قال: "إنِّي أراك تُحب الغَنمَ والبادِية، فإذا كنت في غنَمك وبادِيتك، فأذَّنت للصَّلاة، فارْفع صوتك بالنداء، فإنه لايسْمع مدى صوت المؤذن جِنٌّ ولا إنْس، ولا شيء، إلا شَهدَ له يوم القيامة"، قال أبو سعيد: سِمعته من رسولِ الله صَلى الله عليهِ وسَلم، قال الْمُنذري: رواه مالك والبُخارِي والنسَائي وابنُ ماجه، وزادَ ولاحَجَر ولاشَجر إلاشهد له[127].

ومنها: حديث عقبة بن عامر، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يعْجب ربُّك من راعي غنم في رأس شظية[128]، يؤذن بالصلاة ويصلى، فيقول الله عز وجل: أنظروا إلى عبدي هذا، يؤذن، ويقيم الصلاة، يَخاف مني، قد غفرت لعبدي

(125) الحديث في المعجم الكبير للطبراني ومشكل الآثار للطحاوي، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : يابلال الحديث

(126) صحيح الجامع الصغير الجزء 1 صفحة 599

(127) الترغيب والترهيب الجزء 1 صفحة 175

(128) شظية قطعة مرتفعة في راس الجبل

وأدْخلته الجنة"[129]، وعن سلمان الفَارسِي رضي اللـه عنه قال: قال رَسُو لُ اللـه صَلى اللـه عليه وسلم: "إذا كان الرجل بأرض قيٍّ[130] فحانت الصلاة فليتوضأ، فإن لم يَجد ماء فليتيمم، فإن أقام صلى معه ملكاه، وإن أذَّن وأقام صلى خلفه من جنود اللـه ما لا يُرى طرفاه"[131]

وقَد يُصلي فَريضَةً فِي مَسْجد، فيقوم يَتَنفَّل بعدَ الباقيات الصَّالِحات، فينْسى نفْسَه، فينفد صَبر الْمُؤذِّن، فيصِيح إذا لَم يكُن يَعْرفُـه، وإلاذهب لِحالِه وتركه في الْمَسْجِد، وهَذا حَال مَنْ مَلَكَت الصَّلاة قلْبهُ ولُبَّـه، وصَدق رَسُولُ اللـه صَلى اللـه عَليه وسَلم الذِي قَال فِي إحْدى صِفات السَّبعَة الذين يُظِلُّـهم اللـه تعالى بِظِل عَرْشِه يَومَ لاَظِلَّ إلاَّ ظِله: "ورجلٌ قلبُه مُعلقٌ بالمسجد، إذا خرج منْه حَتى يَعود إليـه"[132].

يقوم الليلَ ويُحافظُ عَليه، ويَلتزِم بِهذَا القيام، حَتى ولَو جاء مِن سفر، والتعب أضناه، والعياء بلغ به منتهاه.

يختم القرآن من أوله إلى آ خره في صلواته أكثر من ثلاث مرات في الشهر، كنا صغارا وحتى كبرنا، ننام وهو يصلي، وقد نستيقظ في جوف الليل فنسمعه يقرأ القرآن ويصلي، ﴿ومِن اللَّيل فَتهَجَّدْ بـِهِ نَافِلَـةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثكَ رَبُّـكَ مَقامًا مَحْمُـودًا﴾[133].

يحافظ على صلاة الضحى حضرا وسفرا، ويروي في الترغيب فيها مثل قوله صلى اللـه عليه وسلم، من حديث أبى هريرة رضي اللـه عنه قال: "أوصانى خليلى صلى اللـه عليه وسلم بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتى الضحى، وأن أوتر قبل أن أرقـد"[134]، وقال أبو الدرداء: "أوصأني حبيبي صلى اللـه عليه وسلم بثلاث، لن

---

(129) رواه ابو داود والنساءي ، الترغيب والترهيب الجزء الاول صفحة 266

(130) ا لقي بكسر القاف وتشديد الياء هى الارض القفر ، وهى الفلاة

(131) قال المنذرى رواه عبد الرازق ، الترغيب والترهيب الجزء 1 صفحة 266

(132) البخاري 660 مسلم 2427 وصحيح الجامع الصغير الجزء1 صفحة 674

(133) الإسراء/ 79

(134) رواه البخارى ومسلم

أدعهن ما عشت: بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، وأن لا أنام إلا على وتر"[135].

يحافظ على الرواتب اليومية، ويحض عليها بمثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من عبد مسلم يصلي لله تعالى في كل يوم ثنتى عشرة ركعة، تطوعا غير فريضة إلا بنى الله تعالى له بيتا في الجنة"[136]، أربعا قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء، وركعتين قبل صلاة الغداة، وقراءتُه في كل ذلك، أنه يتابع القرآن من أوله سورة سورة حتى يختمه، وهكذا.

أما أوراده اليومية من أذكار وقراءة للقرآن، فهي الأخرى لا يدَعُها؛ له أوراد في الصباح، يبدؤها بعد صلاة الصبح، ويبقى معها إلى أن يصلى ركعتي الشروق، ويقول في ذلك إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما رواه أنس: "من صلى الصبح في جماعة، ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين، كانت له كأجر حجة وعمرة، تامة، تامة، تامة"[137]، وقال صلى الله عليه وسلم:"من صلى صلاة الفجر، ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس، وجبت له الجنة"[138]

اعتكف العشر الأواخر من رمضان، واستمر عليه وعلى إحيائه في كل مراحل عمره، وفي كل المناطق التي يصوم فيها رمضان، فاعتكف في "العشورية"، و في "السيفة"، وفي "يفرن"، وفي "الدارالبيضاء"، واعتكف قبل ذا وذاك في"الحرم المكي"، نسأل الله تعالى أن تكون تلك البقاع كلها شاهدة له يوم القيامة.

عزلته:

الوالد – رحمه الله – لم يكن من ذلك النوع الذي يجد الراحة في الأُنس مع الناس، والجلوس معهم، والتحدث إليهم، ومُخالطتهم والاحتكاك بهم،

(135) رواه مسلم
(136) رواه مسلم
(137) رواه الترمذي، الترغيب والترهيب الجزء 1 صفحة 294
(138) الترغيب والترهيب الجزء 1 صفحة 296

ومجاذبة أطراف الحديث معهم، في مجالسهم وأنديتهم ومناسباتهم، هوعكس ذلك كله، يحب العزلة عن الناس، ويرتاح ويطمئن كلما ابتعد عن خلطتهم، يجلس الساعات الطوال وحده، ولا ترى عليه أثر وحشة، بل يشعر بالراحة كلما خلا بنفسه، ولا ينقبض إلا عند الاختلاط، وخاصة حينما يكون الجمع فوضويا، كل يدلي بدلوه، ويتصرف كما يريد ويهوى.

إذا خرج إلى أندية الناس، ومحلات جلوسهم ولقاءاتهم، لايقترب منهم، ولا يحتك بهم، بل يتخذ مكانا بعيدا عنهم، وبيده كتاب يقرؤه، أويردد أذكاره، وقد يقترب منه الشخص من خواصه، فيجلس عنده يؤانسه مدة، فيشعر أنه يريده أن ينصرف ، فينصرف، ويتركه لحاله ، وقد يأتيه آخر فيستفتيه وينصرف.

يجد في هذه العزلة فرصة لاغتنام وقته، وأداء واجبه، والقيام بحق ربه.

وانعزالُه عن الناس لم يكن عن فراغ، إنما هو في شُغل دائم ومُتواصل.

حتى الزائر إذا دخل عليه، لايزيد على أن يسلِّم عليه، ويسأله عن حاله في كلمات معدودة، ثم يعود إلى ماكان عليه من عبادة أو مطالعة.

نعم، له طلبته الذين يجالسهم، وله أفراد يُعدُّون على رؤوس الأصابع، ينبسط لهم غاية الانبساط، ويحادثهم ويؤانسهم، إذا زارهم أو زاروه، ويذكر لهم أسراره وأخباره، ويُقدِّم لهم أحسن ما عنده، ويُهيئ لهم الشاي بنفسه، ويعطيهم أحدث ما عنده من عالَم الكُتب، إن كانوا من طلبة العلم.

ولم يكن هذا الانعزال عن كِبر، أوترفُّع عن الناس، أوعدم اللامبالاة بهم، بل من منطلق شرعي أساسا، ومن قناعات ألزم بها نفسه قديما، وهذا يشعر به الناس ، ولذلك تراهم لايضْجرون من تصرفاته هاته، بل هي مَحطُّ تقدير وإعجاب من قِبلهم، ولا تزيده إلا محبة في قلوب الناس، "ومَن أسرَّ سريرة ألبسه الله رداءها"

وكثيرا ماكان يُردِّدُ قول أبي العباس الهلالي في نصيحته:

واحْرِصْ عَلى العُزْلةِ ماسْتطَعْت ... وإنْ تَسِرْ مِن دونِها انْقطَعتَ
فخُلْطَةُ النَّاسِ أَخِي عِقَال ... والْقِيلُ لاَزِمٌ لَها والْقَالُ
فَدَعْهُمُ تُرِحْهُمُ وتَسْتَرِحْ ... فقَلَّ مَنْ خالطَهمْ ثُمَّ ربِحْ

ويردِّد قول الحُمَيْدِي، ـ شيخ البخاري ـ:

لقاءُ الناس ليس يُفيدُ شيْئا ... سوى الْهذَيان مِن قِيل وقال
فاقْلِل مِن لقاء النَّاس إلاَّ ... لأخْذِ العِلم أوْ إصْلاحِ حَال[139]

والعُزلة محمودة شرعا ، خاصة حينما تكثر الفتن وتعصف الشهوات والشبهات على الإنسان، وتموج به موج البحر، أو كما قال صلى الله عليه وسلم: "تُعْرض الفِتن عَلى القُلوبِ عَرضَ الحَصِير عودا عودا"[140]

أو كما قال منصور بن عمار: "قد تَغَيَّر الزمان، حتىَّ كلّ في وصفه اللسان، فما بقي مِن العلم إلاَّ اسْمُه، ولا مِن الدين إلا رسْمُه، لا تواضُع في هذا الزَّمان إلاَّ لِمُخادعَة، ولا زُهْد إلاَّ لِحيلَة، ولا أمْرًا بالْمعْروف أونَهْيا عن الْمُنكر، إلاَّلِحمية النَّفْس، والناس ذِئَاب في ثِياب، إنْ رفضْتهُم حَرمُوك، وإنْ نَصَحْتهُم غَشُّوك، وإنْ كُنت شريفا حَسدُوك، أو ضَعيفا حقَروك، أو عالِما جَهَّلوك، أو جاهِلا لم يَرشُدوك، فإن نَطقْت قالوا مِهْذار، وإنْ سكَت قالوا بَليدٌ مِدْرار، فمُعاشرتُهُم داء، والفِرار منهُم دواء"[141]

والبخاري رحِمه الله أورد في كتاب الرقائق من صحيحه: "بابٌ العُزلةُ راحَةٌ مِن خُلَّاط السُّوء"، أورد فيه حَديثَين، أَرويهما بالسند الْمتصل إلى أبي سعيد الْخُدري رضى الله عنه:

(139) النسق الغالي صفحة 292
(140) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث حذيفة رضي الله عنه، باب بيان ان الاسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا (رقم 386)
(141) النسق الغالي والنفس العالي صفحة 396

الأول: قال أبو سعيد: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يارسول الله، أيُّ الناس خير؟ قال:رجلٌ جاهد بنفسه وماله، ورجل في شِعْب مِن الشِّعاب، يعبُد ربَّه، ويدع الناس من شره.

والثاني: قال أبوسعيد: سَمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "يأتي على الناس زمان، خيرُ مال الرجل المسلم الغنمُ يتبع بِها شعف الجبال، ومواقع القطر، يفرّ بدينه من الفِتن".

وأورد الحافظ ابن حجر أثر ابن عمر: "خذوا حظكم من العُزلة"، ونقل عن الخطابي قوله: "لو لم يكن في العُزلة إلاَّ السلامة مِن الغيبة، ومن رؤية الْمنكر الذي لايقدر على إزالته، لكان ذلك خيرا كثيرا"[142]. ونقل عنه أيضا قوله رضي الله عنه:

أن العزلة والاختلاط، يَختلف باختلاف متعلقاتِهما، فتُحمل الأدلة الواردة في الحض على الاجتماع، على مايتعلق بطاعة الأئمة وأمور الدين، وعكسها في عكسه، وأما الاجتماع والافتراق بالأبدان، فمن عَرف الاكتفاء بنفسه في حق معاشه، ومحافظة دينه، فالأولى له الانكفاف عن مُخالطة الناس، بشرط أن يحافِظ على الْجماعة والسلام والرد، وحقوق الْمسلمين من العيادة، وشهود الجنازة، ونَحو ذلك، والْمطْلوب إنماهوترك فضول الصحبة، لِمافي ذلك من شغل البال، وتضييع الوقت عن الْمُهمَّات، ويجعل بِمنزلة الاحتياج إلى الغداء والعشاء، فيقتصر منه على ما لابد له منه، فهو أروح للبدن والقلب، والله أعلم.

وختم الحافظ الباب بقول القشيري:

"طريق مَن آثر العُزلة أن يعتقد سلامة الناس من شره، لا العكس، فإن الأول ينتجه استصغاره نفسه، وهي صفة الْمتواضع، والثاني شهوده مزية له على غيره، وهذه صفة الْمتكبر"[143]

(142) فتح الباري الجزء 13 صفحة 130
(143) فتح الباري الجزء 13 صفحة 132

حـديثـه:

الوالد – رحمه الله – متفاعل مع كـلامه، يـعيشه قبل أن يعيشه الناس، ويـحس بوقعـه في نفسه، قبل أن يسمعـه الناس، يشتدُّ فيه حين يكون الكلام قويا، ويلين إذا كان الخطاب خطاب لين ورقة، إذا تَحدث عن النار احْمرَّ وجهُـه، وإذا تَحدث عن الجنة تـهلَّلَ وجهه وأشْـرق، إن تكلم عن غزوة أو سرية كأنَّـه يعيش أحْداثَـها، ويتـفاعل معها بحركاته الظاهرة، وبِملامِحه التي تظهرعلى صفْحةوجْهه، يـورد الآيـة أو الْحديث في درسه أو خطبته وبِتفاعله مـع ذلك النص تفهـم المعنى الْمراد، وقد يكتفي بذلك دون أن يُـفسر ويشرح، هذا شأْنـه حتى في حديثـه العام، وكثيراماكنا ننبسط لِحديثـه عن القصص القرآني، أو السيرة، أو الْمُستملحات والطرف.

موقفه من الصحوة:

المغرب قبل السبعينات من القرن التاسع عشر الميلادى بعقـود، وربَّما بقرون، كان عُلماء الْجوامع الكُبرى–كالقرويـين بفاس، والْجامع الأعظـم بِمكناس، وابن يوسف بِمراكش، والْمدارس العتيقـة بتافلالت، وسوس، والشمال، هى الـمرجع الأساس في توجيـه الناس دينيـا، والْموجـه الرئيسِي عَقَـدِيا ، وعبادة، ومعاملات، وسلوكا، هـم الحجـة عند الناس، وصلة الوصل فيما بينهم وبيـن الله، يأتـمرون بأمرهـم، وينتهـون بنهيهـم، في كل ما يتـعلق بشؤون دينهـم، لايناقشون العالـم أو الـمُتعا لم إذا أصْدر فتـواه، ولا يكلفـون أنفسهـم البحث عن صوابِها أو خطـئها إلا نادرا، وكل جهة من جهات الـمغرب، تتميَّز ببعض الْخصوصيات، ومـن ذلك نشأت النوازل الفاسية، والسوسية، والسجلماسية، يغلب علي الْمغاربة التقليد، ـ خاصة العوام ـ فالعقيدة: أشعريـة، والفقه: مالكى، والسلوك: جنيدي.

في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيـد السالك[144]

(144) البيت من المر شد المعين لابن عاشر

فلما طلعت علينا الصحوة الإسلامية من المشرق، في بداية السبعينات، من القرن التاسع عشر م، الرابع عشر هـ ووفدت علينا شخصيات علمية هامة، تحمل معها أضواء كاشفة لهذه الصحوة، أمثال الدكتور "تقى الدين الهلالي"، والشيخ "أبي بكر جابر الجزائري"، والشيخ "ناصر الدين الألباني"، عارضها فريق من العلماء، ـ وهم الأكثر ـ، وتوقف فريق آخر، واستقبلها بالنصرة والتأييد فريق ثالث.

تابع الوالد تَحركات الصحوة، وتَحركات علمائها، وحضر بعض دروسهم في "تافلالت"، و"مكناس"، و"فاس".

يتوقف في المسائل التي يُثار حولَها الْجدال، وتكون مَحل خلاف بين الفقهاء ورجال الصحوة، حتى يدرُس الْمسالة في مصادرها ومظانّها، ويتأكَّد من صحة ما جاءت به الصحوة، فإن رأى الحق مع الصحوة ، تراجع عن رأيه القديم، ومال إلى مارآه صوابا، ويذكر محاسن الصحوة، وما جاءت به من وعي علمي، ودعوة الناس إلى الرجوع إلى مصادر الكتاب والسنة في الأحكام الشرعية.

وقد رأيته في مسائل كثيرة، تراجع عن رأيه القديم، إلى مارآه حقا وصوابا، ورأيت له تقييدا في ورقات في أحكام الطهارة والصلاة، أحصى فيه ما يزيد عن ثلاثين مسالة، خالف فيها فقهاء الفروع المالكية الدليل[145].

ومما يدل على إنصافه، وأنَّه مع الدليل إذا اقتنع به، أنه في سنواته الأخيرة من حياته، ناقشته إحدى حفيداته في مسألة فقهية في الصلاة، فعارضته في رأيه، فنهرها وقال لها (أش تعرفي؟)[146] فقالت له: وجدت هذا في فتح الباري، فأسرعت إلى الفتح وأتته بموضع الشاهد وصفحته، فقرأ الْمسالة، ووجد الحق مع الحفيدة، فقال لَها وهو يبتسم: "الحق معك يابُنيَّتي".

---

(145) كشروط الاستنجاء التي أشار إليها خليل بقوله "ووجب استبراء باستفراغ أخبثيه مع سلت ذكر ونتره خفا" أنظر "إغاثة اللهفان لابن القيم وفتاوي ابن تيمية ج 21 ص 106 وكشروط المسح على الخفين، والتي أوصلوها إلى إحدى عشر شرطا، وكشروط المسح على الجبيرة، وكشروط التيمم......

(146) أي أنت لاتعرفين شيئا ، وهي حفيدته الأستاذة رشيدة زوجة الشاب النبيه: عبد الخالق نقابي

وأيام كانت مسألة توحيد الرؤيا في الصيام تدور بين الشباب، حاوره أحد طلبته، وأقنعه بفكرة التوحيد، فلما قرب رمضان قال لي: "أخبرني لأصوم مع أول من رأى الهلال من المسلمين"

ومن وصاياه لطلبته –ولكل طالب علم–: "دعوكم من هذه الفروع الفقهية، ولا تضيعوا أوقاتكم في مسائلها وخلافاتها، واشتغلوا بالقرآن والسنة"

ويقول: "منذ زمان قال لنا سيدنا الشيخ: دعوكم من الفقه"

ويقول : "حفظ حديث واحد ، أفضل من ضياع الوقت في قراءة عدة صفحات، وفي كتب فقهية متعددة، في المسألة الواحدة من مسائل الفقه".

عالم القرويين، الْمتشبِّعُ بالفقه الْمالكي[147] إلى النخاع، يقول هذا ! إنه الإنصاف حقا.

نعم يأمرهم أن يتعلموا الفقه وأصوله، حتى تتكون لديهم ملكة فقهية واسعة، يستطيعون بها حَلَّ عويصات الْمستجدات من النوازل والفتوى، ثم بعد ذلك يشتغلون بالكتاب والسنة، ليكون في فقههم نور الوحي وضياؤه[148]،

---

(147) الوالد ـ رحمه الله ـ كان متخصصا في الفروع الفقهية، ويعرف تفاصيلها، وقضاياها، وتطبيقاتها، وكان بازا في النوزل والفتوى، كانت تفد إليه من جهات عدة قضايا في النكاح، والبيوع، والأطعمة، والأشربة، والأيمان، والتوثيق، أما في الفرائض والإرث، فقد كان ثالث ثلاثة تشد إليهم الرحال لحل عويصاته، خاصة وأن بعض الأسر تعرف بعدم قسمتها للإرث مباشرة بعد وفاة الميت، مِما يترتب عنه قضايا بالغة التعقيد والتشابك، ، فكان فيها فارسا لايستسلم، ومجتهدا لاتلين قناته حتى يظفر بالْحل.

(148) قال الحافظ الذهبي : ولكن شأن الطالب أن يدْرُس أولاً مُصنَّفا في الفقه ، فإذا حفِظَه، بَحَثه، وطالع الشُروح، فإنْ كان ذكيا، فقيه النفس، ورأى حُجَج الأئمَّة، فلْيُراقبِ الله، ولْيحْتط لِدينِه، فإن خَيْر الدِّين الوَرعُ، ومَن تَرك الشُبهات، فقَد اسْتَبْرأَ لدِينه وعِرْضِه، والْمعْصُوم مَن عَصَمه الله.. ولا رَيْب أنَّ كُل مَن أنِس مِن نفْسِه فِقْها، وسَعةَ عِلْم، وحُسْن قَصد، فلاَ يَسَعه الالْتِزام بمذْهب واحد في كُل أقْواله، لأنَّه قَد تَبَرْهَن له مَذْهَب الْغيْر في مسائِل، ولاَحَ لَه الدَّليل، وقامَت عَليْه الْحُجَّة، فلا يُقلِّدُ فِيها إمَامَه، بَل يَعمَل بِما تَبَرْهَن، ويُقلِّدُ الإِمام الآخَر بالْبُرهان، لا بالتَّشهِّي والْغَرض. سير أعلام النبلاء، ج:8 ص: 90 ـ 93 ـ 94

ومكتبته التي هي عنوان توجهه ، تضمُّ في رفوفها عددا كبيرا من كتب الصحوة، القديمة والحديثة، ولا تخلو من تعليقاته عليها في الهوامش، وفي واجهة الكتاب، حتى الجرائد والمجلات يشتريها شهريا، ويقرؤها ويعلق عليها، ويستخرج منها ما ينفعه، ويكتب في واجهاتها فهارس خاصة(149).

في مكتبته المسانيد، والصحاح، وكتب ابن حجر، وابن رجب، وابن تيمية، وابن القيم ، والشوكاني، والصنعاني ، وكتب ابن باز، والألباني، والفقي، والسعدي، وابن عثيمين، وزينو، وكتب محمد عبده، وشلتوت، ومحمد رضى، وأحمد أمين، وابن باديس، والقرضاوي، وغيرهم كثير.. وذكر لي أحد طلبة العلم أن الوالد كان أول من أدخل كتاب "السنن والمبتدعات" إلى تافيلالت.

وهو ممن يعفي لحيته قديما، ويقبض في صلاته، ويدعو إلى الهوي في السجود بركبتيه، و يدعو بدعاء الاستفتاح في صلاته، ويجعل السكتات الأربع في الركعة الأولى من الفريضة، ويرفع صوته بالتأمين، ويتعوذ ويبسمل في صلاته جهارا..

ويحارب السحر، والشعوذة، ويدعو إلى نبذ التعصب الْمذهبي، والتقليد الأعمى، ويقول: "كلٌّ يصيب ويخطئ، إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم"

فقهه :

الوالد – رحمه الله – أثناء دراسته ، اشتغل بالفقه المالكي كثيرا ، وقرأ مُختصراته ومطولاته، وأحْكمَه إحْكاما جيدا، وعرف مداخله ومَخارجه، واكتسب فيه مهارة عالية، وتكونت لديه ملكة فقهية متميزة، وذلك لأنه درسه على كبارالْمُتخصصين في "سجلماسة" و"فاس"، درسه على ابن الشيخ، والفقيه الطاهري، وأبي الشتاء الصنهاجي، وحفظ تحفة ابن عاصم، ومُختصر خليل، ولامية الزقاق، ومختصرات عدة،

---

(149) لعل الله ييسر جمع آرائه الفقية المبثوثة في الكتب والمؤلفات التي كان يعتني بِها، وهي إشارات يكتبها في الها مش ، أو يشير اليها في أول صفحات الكتاب.

هـذه الدراسـة كونت فيـه تضخُّمـا فقهيـا، حتى صار كالْمتخـوم من مادة الفقـه، وهـذا ما جعلـه يردد كلمتـه الْمشهـورة لطلبتـه،– وقد تـواترت عنـه – "من زمان قال سيدى: خلِّ عليك الفقـه. "أي اتركه، و يقـول: "خـذ بعض المبادئ من الفقه، واشتغل بالكتاب والسنة"[150]، ولعـل نسيـم الصحـوة وبركـاتـها تركت بصماتـها في مَساره الفقـهي، ودعمت مقولتـه القديـمة.

وهـذا مادفعه إلى أن يعتني بالفقـه السُّـني، ويُـطالع الكتب الْمدعومـة بالأدلـة الشرعيـة، كـ "سبل السلام" للصنعـاني، و"نيل الأوطار"، للشوكاني، و يقول: "بـع ما في الـدار، واشتر نيـل الأوطـار"، و"الـنـووي عـلـى مسـلـم"، و"إرشـاد الساري، للقسطلاني ، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي ، و"التمهيد" لابـن عبد البـر، و"بداية المجتهد" لابن رشـد، و"فقـه السنة" للسيد سابق.. ويدعـو طلبتـه إلى اقتناء وقراءة "سبل السلام" و"نيل الأوطار".

كما يعتنى بالكتب التي تدعـو إلى السنة، وترغـب فيهـا، فيعجبـه في هذا: "الاعتصام" للشاطبي، و"الصارم والأسنـة في الـذَّب على السنـة"، و"المدخل" لابن الحاج، و"سبيل السعادة في معرفـة أحكام العبادة"، و"السنن والمبتدعـات" و"الابداع في مضار الابتداع"....

---

(150)كتب لي الاستاذ الفاضل محمد العمراوي تحت هذه الفقرة قوله : "الفقـه هو التفصيل والتبسيط والتنـزيل للكتاب والسنة، فلا منافاة بينهما، إذ الكتـاب والسنة أصل، والفقـه فرع" أقـول نـعم ياأخي هذا حق عند أمثالك، ممن درس الفقـه وأصولـه، وربط الأحكام بأدلتها، وكما فـعل أخوك الفاضل مشكورا في "المبين عن أدلة المرشد المعيـن"، وكما فعـل الأستاذ أحمد الجكني في "مواهب الجليل من أدلة خليل" ، لكن تَـصوَّر ياأخي: طالبُ علم قرأ المرشـد المعين بشـرح ميارة، وقرأ مُختصر خليل بشرح الـدردير، مـن أين له بأدلـة ماقرأ ؟ وبماذا يجيب السائل حينما يُفتيه ، فيقول لـه : مادليلك ؟ من أين لـه بِـهذا الدليل ؟ وقـد حضرت مرة في محاضرة للشيخ الراحل : "عبد الكريم الداودي"، في الخلافات الفقهية بين المذاهب، وكيف يتوصل كـل فريق إلى دليله، فقـال رحمـه الله: "يرحـم الله شيوخـنـا علمـونا الفروع الفقهيـة المجردة من الدليـل حَـتى شُـحنا بذلك، وفي سـن التخصص فتحـوا أعيننـا على الخـلاف العالي، لكـن بعد فوات الأوان ، فلـم يجد مكانا يستقر فيـه، فلـو عكسوا لكـان أفضل وأنـفع لطالـب العلم، وفي كـل خير".

إذا جاءته النازلة أو الفتوى يراجع فيها الْمطولات في الفقه المالكى، وأحْسن كتاب عنده في هذا، هو "حاشية الرهونى على شرح الزرقاني مع حاشية محمد بن المدني كنون"، لأن هذا الكتاب إضافة إلى غزارته الفقهية، يأتى ببعض الأدلة، ثم يطالع كتب الفقه السنى، وقد يستغرق في النازلة الواحدة الأسابيع، دون ملل ولا كلل، نظرا لنفَسه الفقهى الطويل، وما وجده أقوى دليلا أخذ به، ودعا إليه، وأفتى به، ولو خالف رأيه السابق .

مع تفاسير القرآن

سبق وعلمنا أن الوالد – رحِمه الله – كثير التلاوة للقرآن الكريم، ومن الطبيعي أن يتطلع إلى تفسيره ومعرفة معانيه. من أحب شيئا أكثر من ذكره - يعجبه أن يفسر القرآن في دروسه ومناسباته، و يحب أن يعرف معاني القرآن وإعرابه، وبلاغته، ويعجبه أن يأخذ من الآية حكما شرعيا.

أَول تفسير قرأه على شيخه في تافيلالت: هو تفسير"النسفي"، ولما سافر إلى الديار الْمقدسة، في حجته الأولى سنة 1377 هـ 1958 م أَرْشده أحد أهل العلم إلى حاشية الشيخ سليمان الجمل على الجلالين، فاصطحبه معه من هنالك، واشتغل به مدة، وأضاف إليه حاشية الصاوى على الجلالين، وفي أحد أسفاره إلى فاس أتى معه ب "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبى، واعتنى به كثيرا، ويقول إنه وجد فيه ضالته، فهو تفسير، وكتاب فقه، ولغة، ونَحو، وأدَب، وسلوك، وقبله كان مُعجَبا بأحكام القرآن لابن العربي، ولماّ شرع الشيخ "المكي الناصري" يُلقي دروسه التفسيرية في الإذاعة الوطنية، كان يستمع اليه باستمرار، فأعجب عن طريقه بتفسير ابن كثير، فاشتراه واستفاد منه، وخاصة التفسير الأثري، و له منه عدة نسخ، وفي حجة 1404هـ 1984 م جاء بتفسير الشيخ محمد على الصابونى "صفوة التفاسير" فدرسه في المسجد من فاتِحته إلى الناس. وله بالإضافة إلى ذلك تفاسير أخرى،كتفسير "الكشاف" للزمخشري ، و"البيضاوي"، و"البحر المحيط" و"التسهيل"، و"الكاشف لجواد مغنية.

شأنه مع السياسة :

الوالد – رحمه الله – فى شبابه يوم أن كان المستعمر الفرنسي يحتل المغرب، ناضل وقاوم من أجل تحرير البلاد، وكل شغله أن يُضَيِّق الْخناق على المستعمر، وقد رأينا فيما سبق دعوته الشباب إلى مقاومة العدو، ودعوته إلى الوحدة التي هي بداية النصر، ودعواته للملك بالنصر، والعودة إلى بلاده وعرشه، وكان يتابع تَحركات العلماء فى هذا الشأن، ويراسلهم ويراسلونه عن الأحداث وما جد فيها ويتابع نداءات علال الفاسى عبر إذاعة "صوت القاهرة"،

بعد هذا، وبعد أنْ أخذ المغرب استقلاله، اعتزل الوالد السياسة بالمرة، وطلقها ثلاثا، وصار أُمِّيا فيها، لايعرف عنها شيئا، ولا يلتفت إلى أخبارها، ولو أَزْكَمت الأُنوف، وأَصَمَّت الآذان ، وأعْمَت الأبصار ، إلاَّ ماكان من حال الأمة الإسلامية، كمسألة فلسطين، والعراق أيام حربِها مع إيران، وأيام حرب الخليج، والأفغان أيام جهادهم.

أمَّا السياسة الداخلية للبلاد، كالانتخاب والمنتخبين، والْحكومة، والوزراء، والبرلمان، واختصاصات الإدارات، فلا يَعرف عنها شيئا، لايعرف الْحكومة وأفرادها، ولا يعرف الأحزاب وأقْطابَهم، ولا يعرف الانتخابات وسُمومها.

حدَث يَوما أنَّنا كنا نتحدَّث عن "إدريس البصري"[151] أيام أَوْجِه وعطائه، أو أيام جبروته وطغيانه، وقد شغَل البلاد والعباد، وفَتن الْمُجرم والبَريئ، واشْتغلت به كُل المنابر الإعلامية، فالْتفَت إلينا وقال: من هذا البصري الذي شغلكم إلى هذه الدرجة؟

نعم يعرف الملك ، ويسميه : "السلطان"، ويدعوا له، ويترحَّمُ على محمد الخامس.

---

(151) كان وزيرا للداخلية والإعلام في عقدي ثمانين وتسعين، من القرن العشرين.

أعمالـه:

لم يكن الوالد – رحمه اللـه – منكمشا كـغالب فـقهاء الشرط، وأئمة المساجد، يسْترْزِقون الناس، وينتظرون أُعْطياتِهم وصَدقاتِهم، أو يَقْتاتون بِما يأتيهـم من الشرط، بل كان يعمل ويتحرك، ويباشر أملاكـه وواحاتـه، ولـه دراجـة نارية ينتقل بِها إلى مسقط رأسـه، ويراقب أعماله ومزارعه، ويأتي من هناك بما يحتاجه في بيته من فواكـه وخضر وحبوب .

وحتى في قصر "العشورية" اتَّخـذ ضيعـة له، واشترى لَها ماء جاريا، وحبَّسه للمسجد، ويزرع فيها بعض ما يَحتـاجه، ويتعهَّدها بالسقى والقلب والأسمدة وما إلى ذلك، ويُعلِّم أولاده فيها فن الفلاحة.

له دراجة نارية،– وهي يـومها لا توجد إلاعند أفراد قلائل–، يقوم بإصلاحها بنفسـه، ويفُك مُحركها قِطعة قِطْعة، فيغسل ما اتّسخ، ويُـرمِّم ماتقادم، ويُعوضُ مافسـد، ويعيده إلى حالـه، وكـأَنَّه أتى بـه جديدا من مصْنعه وداره.

تربيته لأولاده:

الوالـد – رحمـه اللـه – رزقـه اللـه ذريـة صالِحـة، مُجدَّة مُثـابرة، في دِراستِهـا وأعمالِهـا، سـواء منـهـم الـذكـور والإنـاث، ولـعـل ذلك مـن بـركـات صـلاحـه ودعواتـه، ﴿وكـان أبـوهـمـا صـالحـا فـأراد ربك أن يـبـلـغـا أشُـدهُـمـا﴾[152] ومِـن ثَمرات مَجهوده في التربيـة، لـه في تربيـة أولاده منهج عجيب، أذكر بعض نقاطـه، لعـل الآباء والمربيـن يستفيدون منـه،

1 – أهـم شيئ عـنـده في طـفـولـتـهـم، أن يَحـفـظـوا الـقـرآن بقـواعـد رسـمه وتَجويـده، كلُّ شغلـه معهـم وهـم أطفال، أن يـحفظوا القرآن، يُوقظُهم مُبكِّـرا، ويُـجلسهم بِجانبـه وهو يقرأ وِرده ليستمعـواوهو يقرأ، يراجع معهـم سوَرهـم التي حفظوها، ويَتفقَّـد ألواحهـم التي يَحفظون فيها، يذهب بـهـم إلى الْمُـدرِّر ويوصيـه

---

(152) سورة الكهف الآية 82

بـهم، ولا يقبل أي شيء يشغلهـم عن القرآن، وقد حقَّقَ اللـه رجاءه، فجُـلّ أولاده حفِظُـوهُ قبل سِنِّ البلـوغ،

2 – كـلما توسَّـم في رجل خيـرا، طلب منـه أن يدعو لهـم بالخير، وشرْح الصدر، ونور البصيـرة، وإن كـان يحفظ القرأن طلب منـه أن يقرأ معهـم شيئا من القرآن، ليستفيدوا منـه بعض مبادئ الرسـم والتجويد والأداء .

3 – لايترك لهم فراغا يلهون فيه ويلعبون، ولا يعرفون وقت راحة او عُطلة، لافي اليوم ، ولا في الأسبوع، ولا في السَّنة،

4 – لايذكر الدنيا بحضرتِهم، ولا يناقش مشاكلها وقضاياها وهـم يسمعون، ولا يعرفهـم إياها[153]، لايعرفـون خيرها، ولاشرها ، لا يعرفون سوى البيت، والمسجد والمدرسة .

5 – يعيشون عيشة وسطا في مأكلهـم ومشربِهـم ولباسهـم وفراشهـم،

6 – لا يُـوفر لَهـم في البيت مايَشغلهم مِن وسائل اللعب والترفيـه والفُرْجـة .

7 – كلما اجتمع بهـم في جلسة أسريـة، قرأ معهـم شيئا من القرآن، أَقَلُّ شيء أن يقرؤوا سورة "الفاتحة" مرات، و يفاجؤهـم بين الحيـن والآخر بقراءة الربـع الأخيـر من الحزب الستيـن، إيذانا بإشْراكهـم لَه في ختمـة قرآنيـة جـديدة، وعادة مايكون هذا بُـعيد الإفطار صباحا، أو بَـعد تناولـه للشاي عصرا.

8 – لايعتنى كثيرا بدراستهم في المدارس العمومية ، هى عنده شيء ثانوي

9 – أولاده يُجلُّونه غاية الاجلال، فلا يتكلمون بحضرته إلا بالاشارات، ولشدة احترامهم إياه، لايستطيعون أن يُحِدوا النظر فيه، أو يطلبوا منه شيئا من قضاياهم،

---

(153) كانت أموال الوالد رحمه اللـه، وملفاته التي تحوي عقود ممتلكاتـه، والوثائق التي يُدون فيها لوائح المقترضين – وهـم كُـثر – كانت في متناول اليد، ورغم ذلك لم يسجل مرة أن أحد أبنائه اختلس منها شيئا، مع العلم أننا كنا نفاجأ ونحن نـعبث بكتب الوالد رحمـه اللـه بوجود كميات مهمـة من الأموال التي يَخزنُـها رحمـه اللـه بتلقائيـة بين دفتي الكتب.

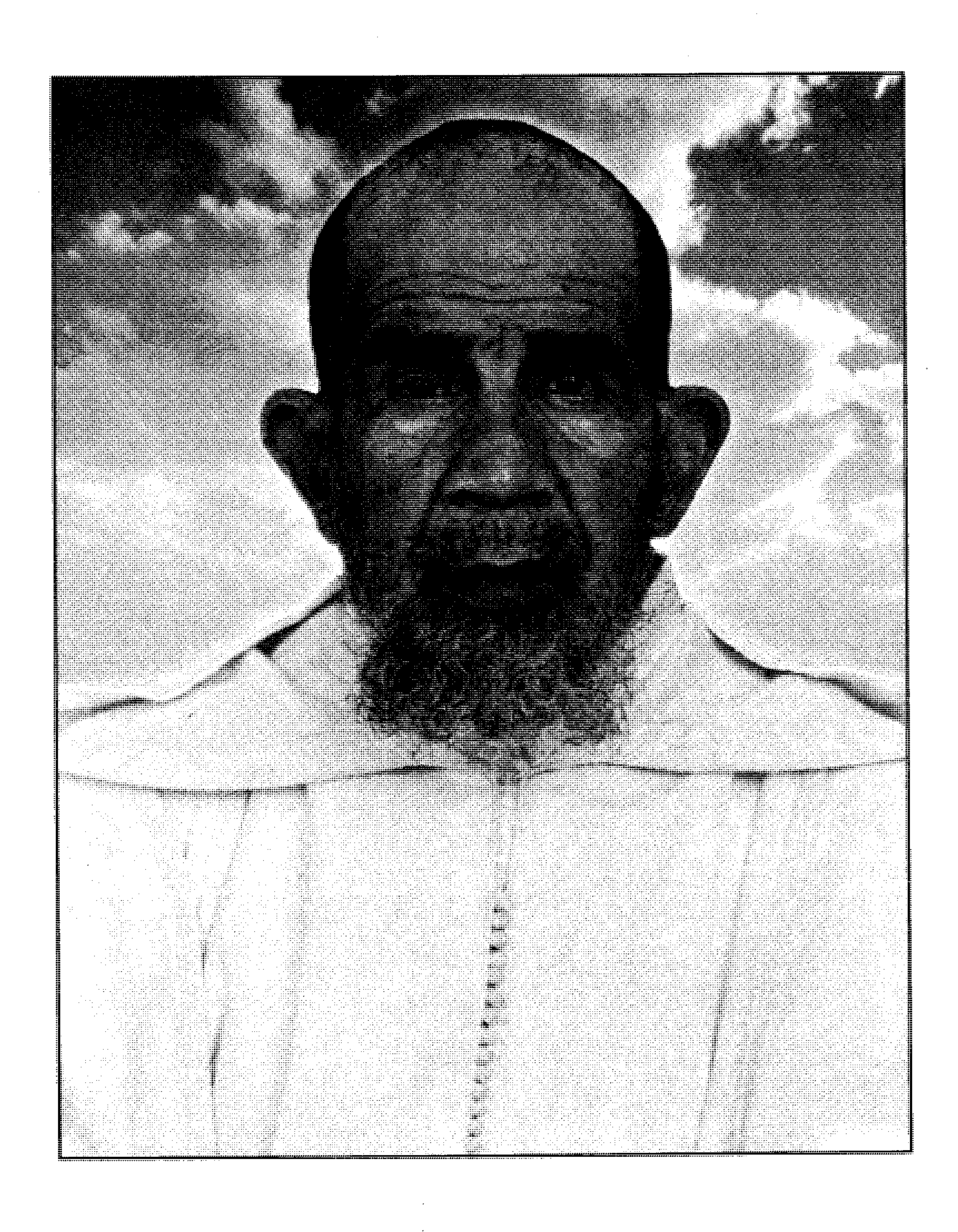
ولا تُقْضَى مطالبهم إلا بواسطة الأم، أطال الله بقاءها، وأوامِرُه تُنفَّذ على الفور، ودون استفسار، أوامره في نظر أولاده وحْي، يجب أن تطبق ولا تُناقش.

الكتب المحببة اليــه :

✓ في الفقه: حاشية الرهوني
✓ في الحديث: الترغيب والترهيب
✓ في التفسير: النسفي والقرطبي
✓ في السلوك: مدارج السالكين
✓ في الرقائق: الحِكم العطائية
✓ في فقه السنة: سبل السلام
✓ في اللغة: القاموس المحيط
✓ في السيرة: السيرة الحلبية ، وزاد المعاد
✓ في القراءة الحرة: حياة الحيوان الكبرى

الشخصيات المعجب بها:

✓ من الفقهاء: أبوسالم العياشى، وأبو العباس الهلالي
✓ من شيوخه: ابن الشيخ ، وأبو الشتاء الصنهاجى
✓ من المُربين: محمد بن الحبيب
✓ من الأحياء: الشيخ زحل ، وشيخ تاغنجاوت
✓ ومن تلاميذه: محمد النوايتى
✓ ومن الأئمة: حسن بشار
✓ أَحَبُّ الأكل إليه: اللحم، وخاصة الغنم
✓ أبْغضُ الأَكْل إليه: الدجاج الرومى
✓ أَحَبُّ الناس إليه: مَنْ أَطاع ربَّه وتَعلَّم دِينَه
✓ أبغض الناس إليه: الثرثار الضحوك
✓ أحب بلاد إليه: مكة والمدينة



شهـــــادات

- كلمة الشيخ محمد الفزازي
- كلمة الأستاذ محمد الادريسي
- كلمة الفقيه محمد النوايتي
- كلمة الأستاذ محمد العمراوي
- كلمة الشيخ عبد اللهمن المدني
- كلمة الدكتور عبد الله صغيري
- كلمة الدكتور الحاج المهدي بابا خويا
- كلمة الدكتور محمد رفيع
- كلمة الأستاذ عبد العلي المسئول
- كلمة الأستاذ عبد العظيم صغيري

كلمة الشيخ محمد الفزازي[154]

بســـم الله الرحمن الرحـــيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرورأنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلاهادي له، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، ﴿ياأيها الذين ءامنوا اتقوا الله حق تقاته،ولاتَموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ ـ آل عمران 102 ﴿ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام[155]، إن الله كان عليكم رقيبا﴾ ـ النساء:1 ياأيها الذين ءامنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا،

---

(154) ولد الشيخ محمد الفزازي في: 1923، حفظ القرآن برواية ورش، ثم قرأه برواية قالون عن الشيخ حسن الغماري، وبدأ العلوم الشرعية على الشيخ محمد الأبيض الشريف الإدريسي سنة 1440م، دخل جامع القرويين سنة 1944 إلى سنة 1953م بعدها، ـ وبرؤيا منامية تأمره بالجهاد، دخل في معسكر المقاومة وجيش التحرير، وكان قياديا بارزا، وبطلا مقداما، ثم دخل في صفوف الجيش، وأحيل على التقاعد في أوائل سنة 1980

بعدها أسس جمعية "الدعوة إلى الله"، وفتح بيته ومكتبته لطلبة العلم، ووفد إليه الطلبة من كل مناطق المملكة ،يتعلمون ويقرؤون، وقد هيأ لهم المأكل والمشرب والمسكن، بعد أن منع من نشاطه العلمي، حبس مسجدا، لازال إلى الآن تؤدى فيه الصلوات، وحبس لطلبة العلم مكتبة حافلة بالمراجع، وله ـ حفظه الله ـ عدة مؤلفات، من بينها مؤلف ضخم في العبادات والمعاملات، يحتوي على 62 مجلدا، طبع منه فقه العبادات،

(155) فيه جواز السؤال بالله تعالى وأما حديث "لايسأل بوجه الله إلا الجنة "فضعيف، وعلى فرض صحته، فهو محمول على سؤال الأمور الحقيرة، أفاده الشيخ الألباني رحمنا الله وإياه

يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما[156]، الأحزاب/ 70-71

أمـا بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى ءاله وسلم، وشر الأمورمُحدثاتُها، وكل مُحدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار[157].

هــذا

وإن الأخ الكريم في الله عز وجل، الشيخ الفاضل العلامة، المقتدر،الخطيب الموفق بتوفيق الله تعالى بالجامع الكبير بمدينة "يفرن" بالأطلس المتوسط سابقا، والخطيب ثانيا بمسجد الإخلاص بالدار البيضاء، السيد أبو زكرياء محمد بن الفقيه العلامة السيد محمد بن العربي بن الحاج محمد بن العربي بن الحاج عبد الرحمن الصغيري، المنسوب إلى أسرة عربية أصيلة، قدمت من ينبوع النخل بالحجاز، من الجزيرة العربية- السعودية الآن المباركة، فاستوطنت منطقة "السيفة" بتافلالت، بإقليم "الراشدية" حاليا، وتسمى سابقا "قصر السوق" وهو من ءال البيت النبوي الطاهر، الذين هاجرو من أجل تبليغ الدعوة الإسلامية، في ربوع إفريقيا الشمالية، بالمغرب الأقصى بسجلماسة،المعروفة بالعلم الشرعي قديما وحديثا، وكانت تسمى "باب الصحراء الكُبْرى" بِجنوب إفريقيا الشمالية، وكانت وماتزال قلعة العلم والعلماء، والجهاد والْمجاهدين،

---

(156) هذه الخطبة هي خطبة الحاجة، التي كان رسول الله صلى الله عليه وعلى ءاله وسلم، يعلم أصحابه أن يقولوها بين يدي كلامهم في أمور دينهم، سواء كان خطبة نكاح، أو جُمعة، أو مُحاضرة، أو غير ذلك، . . وهي مهجورة - مع الأسف - من العلماء قاطبةفيما علمت، فلعلهم يعودون إليها ويُحيونَها، أفاده الشيخ الألباني أيضا

(157) هو من حديث جابر رضي الله عنه قال فيه: إن النبي صلى الله عليه وعلى ءاله وسلم كان يقول ذلك إذا خطب، كما رواه مسلم والنسائي وغيرهما، وذلك يشمل الخطب كلها، وبصورة خاصة،خطبة الجمعة، فقد جاء التنصيص عليها عند مسلم في رواية له، فعلى الخطباء أن يُحيوا هذه السنة أيضا. أفاده الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، رحمنا الله وإياه والمسلمين أجْمعين ءامين،

والشهامة العربية، المحافظة على السنة النبوية الطاهرة، ولا سيما حجاب المرأة المسلمة، وحتى الآن بإذن الله تعالى،

وقد التمس[158] مني ولده البار- أبوزكرياء - الذي كتب رسالة في السيرة الذاتية الشريفة لوالده الشيخ المذكور قبله، رحمنا الله وإياه رحمة واسعة،وأسكنه فسيح جناته، وجمعنا وإياه في مستقر رحمته، في الفردوس الأعلى آمين، فاستجبت لأخينا في الله "أبي زكرياء" شاكرا له حسن ظنه بي.

إن والد أخينا أبي زكرياء المذكور بنسبه وحياته الذاتية،وسيرته العطرة،- وهذا بعض واجب الأبناء للآباء-

وأنا أعرفه معرفة شخصية، التقيتُ به لأول مرة، لمازرت ولده ابازكرياء في بيته بالمسجد الأعظم بإفران، وتذاكرنا فيما بيننا في شأن العلم والعلماء، وطلب العلم الشريف، داخل المغرب الأقصي وخارجه، فوجدت الشيخ الكريم السيد الحاج محمد بن العربي من أفقه علماء المغرب، في العلوم الشرعية بالمعنى العام، وعلوم الآلة، من نحو ومؤلفاته، وتوحيد الله عز وجل ومؤلفاته فيما أذكر، وكانت لي ساعة من أسعد لحظات طالب العلم، أمام أشياخهم، العلماء العاملين، وأساتذتِهم المبرزين، في كل فن من فنون علم الآلة والشريعة، بعلمه وهندامه، ووقاره، وأدبه الجم الغفير، وعمامته الكبيرة، كما هو شأن العلماء الأقدمين في كل مصر وعصر، وكان ذا قامة جسدية مهابة، ونضارة وجهه المشرق، المستنير بنور الله تعالى لاتُمل، ولو طال الأمد، ثم افترقنا جسديا لاروحيا، فتأصَّلت بيني وبينه محبة لايعلم قدرها إلا الله عز وجل، وكانت الهدايا بيني وبينه في مطبوعاتنا العلمية وغيرها لاتنقطع،حتى لقي ربه راضيا مرضيا إن شاء الله تعالى،

---

(158) قال لي الشيخ حفظه الله ، إنه قصد بلفظة "التمس"معناها عند علماء المنطق، والذي أشار إليه صاحب السلم بقوله:

أمر مع استعلا و عكسه دعا   وفي التساوي فالتماس وقعا ،

وقال لي: أنا أكبر منك سِنا، أما العلم فلا، وهذا منه تواضع ، رفع الله مكانته ومنزلته في الدنيا وإلاخرة، وإلا فهو أفضل مني علما وأدبا، ولي الشرف أن أكون من تلامذه.

اللهـــم اغفر لـه وارحمـه، وخلد ذكـره في الصالحين، وارزقنـا وإيـاه النظر في وجهك العزيزيوم لقائك، "يـوم لاينفـع مـال ولا بنـون إلا مـن اتى اللـه بقلب سليـم"كـما نسألك ياأرحـم الراحميـن لأبنائـه العلمـاء وغيرهـم التوفيـق للعمـل بكتابك، وسنـة نبيك محمـد رسول اللـه صلى الله عليـه وعلى ألـه وصحبـه وسلـم، والتابعيـن لهـم بـإ حسان إلى يـوم الديـن، وأعنـا معهـم أميـــن.

سبحان ربـك رب العزة عمـا يصفـون، وسلام على المرسليـن، والحمـد للـه رب العالميـــن

التوقيـع:أبـومحمـدمُـحـمـدبن الحسـن، بـن محمـد، بـن عـبـد الـلـه، الـفـزازي، الحسني النسب المرنيسي، عفـا اللـه عنـه وعـن والديـه، وأهلـه وأشياخـه، وكـل مـن لـه الحـق عليـه، وعن المسلميـن اجْـمعيـن،يارب العالَميـن.

في 18 بيع النبوي 1430 هـ 16 مارس 2009 م بفـــاس

كلمة الأستاذ محمد الإدريسي[159]

الشيخ الحاج محمد بن العربي رحمه الله تعالى فقيه تافيلالت ونحويها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على إمام المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته أسوة العلماء العاملين، وكل من اقتفى الأثر إلى يوم الدين

وبعد فحينما يحل الخطب، وينزل الكرب، بفقد قريب، أو موت حبيب، لا يجد المؤمن ما يثبت به فؤاده، ويشغل به لسانه، ويمعن فيه فكره، إلا ما أرشدنا إليه ربنا سبحانه ورسوله ﷺ حين المصيبة، ترغيبا في الاسترجاع إليه، وترهيبا من دعوى الجاهلية "إنا لله وإنا إليه راجعون" وإن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا شيخنا لمحزنون .

فقد العلماء، وموت الصلحاء النصحاء، مصيبة ورزية بمن بقي بعدهم

لعمرك ما الرزية فقد مال ... ولا شاة تموت ولا بعير
ولكن الرزية فقد حر ... يموت بموته خلق كثير

(159) ولد الأستاذ الفاضل : أبوا ياسر بتافيلالت سنة 1969 م وحفظ القرآن برواية ورش بها، وهو ضمن الفوج الأول الذي أحيا في جامع القرويين نظامها العلمي القديم سنة 1408 هـ 1988 م وأخذ علم القراءات عن الشيخ الحاج المكي رحمه الله تعالى، وهو الآن يعمل أستاذا بأحد المعاهد بالدار البيضاء، وإماما وخطيبا بأحد مساجدها، وعضوا مع المجلس العلمي بها، وأحد أساتذة إعداد " الكتاب المدرسي"

يرحم الله أمير المؤمنين محمد بن إسماعيل البخاري، ورد عليه كتاب فيه نعي عبد الله بن عبد الرحمن [الدارمي 255هـ] فنكس رأسه، ثم رفع واسترجع، وجعل تسيل دموعه على خديه، ثم أنشأ يقول:

إن تبق تفجع بالأحبة كلهم   وفناء نفسك لا أبا لك أفجع[160]

عرفت الشيخ الحاج محمد بن العربي رحمه الله تعالى منذ الصبا لما كانت له من مودة مع أبي وأخي، عرفته مهاب الجانب، قوي العزيمة، يحب العلم والعلماء، ويجل طلبة العلم ويدنيهم منه، وقدر الشخص في نظره، بقدر علمه وحسن سمته، لسان حاله رحمه الله تعالى ينشد قول الشاعر :

ما الفخر إلا لأهل العلم إنَّهم   على الهدى لِمن استهدى أدلاء
وقَدْرُ كل امْرئ ما كان يُحْسنه   والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففُز بعلم تعِشْ حيا به أبدا   الناس مَوتَى وأَهْل الْعِلْم أَحْياء

تبوأ الكتاب في قلبه رحمه الله تعالى مكانة عالية، فكان أحب شيء إليه يقتنيه ويمتلكه، يُحب الطباعات الفاخرة، وربما يقتني من أجلها الكتاب وهو عنده، يعْشَق المصادر الأصلية، ويهتم بِها، وكثيرا ما سمعته يردد قول ابن مالك رحمه الله تعالى في الألفية :

.... ما   كَانَ أَصَحَّ عِلْمَ مَنْ تَقَدَّمَا[161]

وحُبُّه للقديم والأصيل، لم يَمنعه من قراءة الحديث والجديد من المؤلفات، بل قد يستحسن بعضها، ويطالع المجلات إن وجدها، ويرقم على غلافها ما أراقه منها، وما في خزانته من كتاب صغير أو كبير، لا يكاد ينساه ولو طال عهده به، فما في خزانته ـ رغْم كِبَرها ـ يعرفه كما يعرف أبناءه، يَذكر بعض المسائل الدقيقة في مصادرها، ويُحيل الباحث عنها في مكانِها، مشيرا إلى أعْلى الصفحة أو أسفلها، كان رحمه الله تعالى مُدْمنا على المُطالعة، إذا جذَبَه موضوع، أو اهتم بتحقيق مسألة، كأنَّه في ساحة الوغى، وقد لبس لأمته، فلا يُولِّي الكتاب ظهْره حتى يفتح

(160) سير أعلام النبلاء – (ج 12 / ص 229) ط الرابعة مؤسسة الرسالة.
(161) ألفية ابن مالك باب كان وأخواتها

الله له، ولو قامت الدنيا من حوله ـ والله تعالى أعلم ـ ما درى، ولْيدْخُل الداخل ولْيخْرج الخارج ولْيتكَلَّم الصامت، لِيصْمُت الْمتكلم، ولْيطْرق الطارق، ولتُرْعد السماء ولتبرق، فلِكُل وِجْهةٌ هو مُولِّيها، وكأنِّي به يردد في خلَدِه وفِكْره قول أبي القاسم الوزير المغربي :

أقُول لها والعيس تُحدج للسرى أَعِدِّي لفقْدي ما استَطعْتِ مِن الصبْر
سأُنْفق ريعان الشبيبة آنفاً على طلب العلياء أو طلب الأجر
أليس من الخسران أن لياليا تمر بلا نَفعٍ وتُحْسب من عُمْري

وبِهمته وحزْمه وعزمه، بعد توفيق الله له، أخذ بحظ وافر من ميراث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ونفع الله به خلقا كثيرا، ومن باب التحدث بنعمة الله علي والاعتراف بالجميل لأهله ، ولله الحمد والمنة، أقول : قد ورِثتُ من علْمه بفضل الله قِسطا كبيرا، بعْضُه منه مباشرة، وجُله بواسطة ابنه الأكبر البار، أشهَر تلاميذه وأتقنهم وأقربهم وأحبهم إليه، شيخي وأستاذي: سيدي محمد أبي زكرياء حفظه الله الذي لازمتُه أكثر من أربع سنوات، ختمتُ فيها عليه كُتُبا ومنظومات، مما درسها وأخذها من مجالس أبيه الراحل رحمه الله تعالى، فارْتشفْت من علوم القرويين ومقرراتها، قبل أن ألتحق بها، وتذوَّقتُ من أساليب التدريس والمدارسة بِها قبل أن تحتضنني رحابُها، وجُلتُ في فنون وعلوم، فكانت تلك الأيام ـ بمدينة يفران مع أبي زكرياء شيخي وابن شيخي ـ سُعودا،

وللعلْم أيامٌ هي السَّعدُ كُله وأمَّا ليالي الجهْل فهي مَناحِس
فيا قوم عافوا الجهلَ فإنَّه جريمة وإنَّ مصير الْمُجرمِين الْمحابس

كان شيخنا الحاج محمد رحمه الله من فحول أعلام تافلالت، وأشهر رجالاتِها، وقد آلتْ إليه الفتوى في المسائل الفقهية المستعصية على أئمتها، أتَخيَّله في نَعْشه وأنا في موكب جنازته، يوم حمل إلى قبره، يُخاطب مُشيِّعيه بقول الشاعر:

سيذْكُرني قوْمي إذا جَدَّ جدُّهم وفي اللَّيلةِ الظَّلماء يُفتقَد البدْر

كان طالبُ العلم يَجد عنده الأجوبة الكافية، أو الإرشاد إلى المظان الشافية، يضْبطُ النُّكت الفقهية، والمسائل والمستثنيات الغريبة، في مجال العبادات، والرضاع

والمواريث والمعاملات، وكذا في البيوع والأنكحة، وغيرها من الأبواب الكثيرة، وكان رحمه الله تعالى يسْتلَذُّ المذاكرة، في الدقائق الصرفية والنحوية واللغوية، حضرتُ معه يوما في مجلس لطيف، وهو يناقش أحد العلماء في محل ضمير الغائب من الإعراب، وموعوده في دعاء النبي : (... واجعله الوارث منا ...)[162] وأذكر أنِّي زرتُه يوما بالسيفة، وأنا في بداية طلب العلم، على أبي زكرياء حفظه الله تعالى، فسألني عما ندرس من الكتب، فذكرتُ له منها "ألفية ابن مالك"، فهشَّ في وجهي وبش- رزقنا الله وإياه النظر إلى وجهه الكريم - فاختبرني مُتلطِّفا مُبتسِما بقول الله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَظهرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[163]

ومن سجاياه رحمه الله تعالى، الإكْثارُ من ترداد الأدعية والأَذكار، يَحفظ الطويل منها، ويردده في كثير من الأحيان، يتلذَّذ بتنوُّعها، ويتعَبَّد الله تعالى بِها، ومن الأدعية التي يُكثر منها: "اللهم يا من أظهر الجميل وستر القبيح، يا من لا يؤاخذ بالجريرة ولا يهتك الستر، يا عظيم العفو، يا حسن التجاوز، يا واسع المغفرة، يا باسط اليدين بالرحمة، يا صاحب كل نجوى، ويا مُنتَهى كل شكوى، يا كريم الصفح، يا عظيم المن، يا مُبْتدِئا بالنعم قبل استحقاقها، يا ربَّنا ويا سيِّدَنا، ويا مولانا، ويا غاية رغْبتنا، أسألك يا الله، أنْ لا تَشْوِيَ خَلْقِي بالنار"[164]

اللهم اغفر له، وارحمه، وعافه، واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونَقِّه من الخطايا كما نقَّيتَ الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارا خيرا من داره، وأهلا خيرا من أهله، وزوجا خيرا من زوجه، وأدخله الجنة، ونَجِّه من النار، اللهم لا تَحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده، آمين آمين آمين

وصلى الله تعالى على نبيه الكريم نبينا سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين

الدار البيضاء بتاريخ 27 ربيع الأول 1430 هـ 2009/03/25م

---

(162) جامع الترمذي ح : 2053

(163) سورة المجادلة الآيتان 1 / 2 .

(164) أصله في مستدرك الحاكم برقم 1998 وقال : صحيح الإسناد .

كلمـة الفقيه محمد النوايتي[165]

الحمد للـه رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى ءاله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين،

وبعـــد: لي عظيم الشرف، أن أنخرط في سِلك تلاميذ العالِم العلاَّمة، بركة العصر، وربَّاني وقته، سيدي الشيخ الفاضل :الحاج محمد بن العربي الصغيري، وهذا مما يكتسبه المضاف من المضاف اليه،

والذي تفضل ابنـه البار، الأستاذ محمدابن الحاجِ محمد بن العربي صغيري، بكتابة هذه الرسالة حول أبيه وأبينا جميعا، وقد تكفَـل بحمل هذه الأمانة، وهو لَها أهـل، وبحقها أدرى، وناب عن تلاميذه ومُحبيـه، وملأ فراغا كُـنا في أمـس الحاجة اليـه، فجزاه اللـه عنا وعن والده أحسن الجزاء، وأثابـه على ماقـدم، وجعـل ذلك في ميزان حسناتـه،

وإني لأجد نفسي حائرامِـن أين أبدأ الكلام عن سيدي، وما عساني أن أقـول فيه، وهـو الجبـل الشـامـخ في المجد وعـزة الـنفس، والـبحر الزاخرفي العلوم، والتقوي، والاستقامة، والورع، والتواضع، وحُسن الخلـق، وإذا كان المثل يقول: "من أخصب تخير" فإني أجد نفسي أمام شيخنا المفضال على عكس ذلك "من تَخيَّـر تَحيَّـر"

وأكتفي بلَمسات من موا قفـه مع تلامذتـه، ـ وأنـا واحد منهـم ـ كان رحمة اللـه عليه مع طلبته منشرح الصدر، دائم الابتسامة، يُرى في وجهه النور والبشر، والقبول والترحيب، يحترم مواعيد الدرس، ولايتركـه إلانادرا، وإن أراد أن يتأخر،

(165) السيد محمد العربي بن محمد النوايتي الإراري، يقوم حاليا بالإمامة والخطبة والوعظ والإرشاد بمسجد "سيدي عدي" ضواحي مدينة "ازرو" اقليم "يفرن"" ويدرس مصطلح الحديث بأحد المدارس العتيقة بأزرو.

أرسل لطلبته مُعْتذرا، ينبسط لطلبته في الدرس حتى يفهموا، وخاصة ثقيل الفهم، ويقول : "ماجئنا إلا لنفهم، وسيحصل الفهم إن شاء الله، ويعْدل بين طلبته، ويسوي بينهم، وهم عنده سواسية، حتى إن كل طالب يعتقد أنه الأقرب إليه، والأحب دون سواه، ووقعت لي معه مواقف لاتُنسى، تنم عن أخلاق عالية، وتواضع كبير، أذكر منها:

1 - أول مرة جئت إلى حلقة درسه، وجدته يشرح الزنجاني فى علم التصريف، وبعد أن سألني عن اسمي ونسبي، تفضل مشكورا، فأعطاني نسخة من شرح الزنجاني - وهو يومها لاوجود له، لابالشراء ولا بالإعارة - أعطاني إياه، و لم يسبق له أن عرفني، ولا رآني من قبل، ولاعلم عني شيئا من الْجِدِّية أو الوفاء، ولا أسأواصل الدراسة أم أنقطع، أعطاني إياه، وهو يُدرسه لطلبته، وشديد الحرص على أن يكون لكل طالب نسخته، وقد قيل فى حب الكتاب بصفة عامة، فكيف بمن يدرسه:

كتابي لايُعار ولو برهن مَخافة أن يُلوث بالمداد
ففي تَحصيله أفْنيت عُمري وفي تصحيحه أفنيت زادي

❖❖❖

ألا يامُستعير الكتاب دعني فإن إعارة الكتب عار
فمحبوبي من الدنياكتابي وهل رأيت مَحبوبا يعار

2- اشْتريتُ مرة قميصا لي، فأعجبني وأخذت مثله لسيدي، فلما جئت به إليه، وقدَّمته له هدية، رفض قبُوله مني، فذكَّرته بأن الهدية لاتُرد، فأخذه مني، ودعى لي، ثم قال لي: وأنا الآن لاأجد مَن أهديه هذا القميص خيرامنك، فهو هدية مني إليك، والهدية لاترد، فأخذت القميص هدية منه الي، وبذلك كانت "بضاعتنا ردت إلينا"، لكنها بقالب آخر، رجعت ببركة ودعوات سيدي،

3 - مرة زرته في إحدى ضيعاته القريبة من بيتنا، فرأى في ثيابيءاثار المطبخ من عجين ومرق، فسألني عن السبب، فأخبرته أن زوجي ثقل عليها حملها، فدخلت معها المطبخ لأساعدها في تهيئ الطعام للأولاد الصغار، فلما ودعني سيدي، أرسل ابنته[166] التي كانت معه إلى بيتنا، وأمرها أن تقوم بشئون الدار حتي تشفى زوجي،

(166) وهي لطيفة الصغيري، زوجة الفقيه الشاب الأديب : محمد العمراني

فلما دخلت ووجدتها بالبيت، سألتها ماذا تريدين؟، أهناك شيئ أقضيه لك لتعودي إلى أبيك سيدي الذي ينتظرك، فأخبرتني أنه أمرها بالبقاء في بيتنا، لمساعدة الزوجة، وهي يومها الساعد الأيمن لهم في البيت، ومكثت عندنا قرابة الشهرين،حتى وضعت زوجي وشفيت، هذا هو الإيثار في أعلى صوره، وهذه هي الرحمة في أبهى تجلياتها،

وكان سيدي رحمة الله عليه يودعنا بأبيات أبي العباس أحمد بن عبد العزيزالهلالي، وهي التي ودعه بها شيخه ابن الشيخ الإراري، وكأنها وداع فراق إلى عالم الآخرة:

أودعكم وقد شق الفراق	وللكبد انصداع واحتراق
وأسكب عبرة تدمي وماذا	يفيد أخى ألجوى دمع يُراق
فلو نعطى الخيار لما تأتى	لسهم البين في الوصل انزراق[167]،
ولكن دأب ذي الدنياسرور	وحزن واجتماع وافتراق
فأودعكم أحبتنا جميعا	وداعا لايخونه انسراق[168]
عليكم من اخي ودصفي	سلام رضى ولاطال الفراق[169]

جزى الله عني سيدي، الذي ساعدني في أمور ديني ودنياي، بنفسه ووقته، وعلمه وأهله وماله، وفتح لي أبواب قلبه ومنزله، وحزانته وكتبه، اللهم ارحمه برحمتك الواسعة، وأسكنه فسيح الجنان، مع المنعم عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين،

وكتبه أخوكم محمد العربي بن محمد الإراري الفيلالي، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، والحمد لله رب العالمين . وكان الفراغ منه يوم: الأربعاء، 13 ربيع الأول، عام: (1430) هجرية، موافق: (11) مارس، عام: (2009) ميلادية والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(167) انزراق : النفاذ انزرق السهم : نفذ ومرق، القاموس

(168) الفتور والضعف، انسرق فتر وضعف القاموس

(169) من ديوان أبي العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي،مكتوب على الراقنة وهي رسالة لنيل دبلوم الدراسة العليافي اللغة العربية وآدابها للأستاذعبد الله الهمس، ص 374 - 375

كلمة الاستاذ الباحث

السيد محمد بن محمد العربي العمراوي [170]

بســم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى

أما بعــد: فقد أطلعني الأستاذ الأريب، والفقيه النجيب، سيدي محمد بن العلامة الكبير، والفقيه النحرير، الحاج محمد صغيري، على ماكتبه عن أبيه، وسطره يراعه عن تعلمه وتعليمه، ودعوته وتربيته، فوجدته قد أفاد وأجاد، ونفع وأمتع، فجزاه الله عن أبيه، وعن العلماء عامة، وأهل سجلماسة خاصة، خير الجزاء، وبارك في جهوده الخيرة، وأنجح مساعيه الحميدة،

لقد كانت سجلماسة طافحة بالعلماء، عامرة بالقراء والفقهاء، ولقد عرفت أول ماعرفت، بأنها دار قرآن، فأهلها يحفظ معظمهم القرآن الكريم، ويضبطون رسمه، ويجودون حروفه، ولهم في ذلك قدم راسخة، وهامة شامخة، ويكفي أن أشير هنا إلى إسناد القراءات في القرون الأخيرة ـ العاشر الهجري فما بعده ـ يكاد يتوقف عليهم، وأن رسم المصاحف على ماورد تواترا في المصحف الإمام، يكاد يختص بهم، ولله در سيدي محمد التهامي بن الطيب، القائل في أرجوزته المشهورة:

فالاقتفــاء واجب محتــم علينا في اللفظ وفيما رسمــوا

وإذا كانت سجلماسة دار قرآن بلا منازع ولا مجادل، فهي كذلك دار فقه بلا مماحك أو مخالف، فقد كانت النوازل ترفع إلى علمائها من مختلف الأقطار، وترسل من كافة الأمصار، ـ الغرب الإسلامي على وجه الخصوص ـ فالفقه فيها قديم، قدم

(170) الأستاذ العمراوي يقطن حاليا بمدينة "سيدي سليمان "الغرب" خطيب وواعظ بها ، ومدير لمدرسة قرآنية بها، وله أبحاث ودراسات يشكر ويثاب عليها،

الاسلام نفسه،كيف لا؟ وقد تتلمذ بعض أهلها على مالك الصغير، أبي محمد، عبد الله بن أبي زيد القرواني، ـ رحمه الله ـ وتكفي الإشارة هنا إلى باز النوازل : سيدي إبراهيم بن هلال المشتراني ـ رحمه الله ـ وإذا صح ماتقدم، وهو صحيح قطعا، فإن كاتبه يزعم أن سجلماسة ـ أيضا ـ دار حديث وأصول، ولي على ذلك من الشواهد والأدلة مايثلج صدر المحب، ويقنع المتشكك المتردد، ولكن المجال يضيق عن الدخول في التفاصيل .....

إن مشكلتنا اليوم ـ وقبل اليوم ـ أننا لانهتم بتاريخ رجالنا، ولا نكتب عن أئمتنا،ولا نؤرخ لعلمائنا، فتضيع العلوم مع ضياع العلماء، وتنسى المعارف مع نسيان الفقهاء، وقد شكا محمد بن جعفر الكتاني في كتابه "سلوة ألأنفاس" من هذا الوضع، الذي يشترك فيه أهل المغرب، فقال مامعناه،"إن المغاربة لايكتبون، ولا يؤلفون، وإنما يقتصرون على التدريس، ولا يترجمون لأئمتهم وعلمائهم، ولذلك طوى معظمهم النسيان"

لهذا وغيره، تأتي أهمية هذه المبادرات، في تدوين تاريخ العلماء ، وتسجيل آثرهم العلمية،والتربوية، وهو الذي دفع كاتبه منذ سنوات إلى الاهتمام بهذا الأمر، فاجتمع لديه ماينيف عن 300 ترجمة،لعلماء بارزين، من أهل هذه البلدة،وما حولها،

إن مافعله الأستاذ سيدي محمد صغيري، يستحق التشجيع والتنويه، فقد فتح في الجدار كوة، وأوقد في الظلام شمعة، واستنزل من السحاب قطرة،

نرجو أن يكون ذلك مقدمة لأن تنفتح السماء بماء منهمر، وتتفجر الأرض عيونا بأخبار العلماء الأعلام، الذين جاهدوا بالعلم : الجهل والفسوق والعصيان،

وفي ختام هذه الكلمة، لايسعني إلا أن أجزل شكري وامتناني للأستاذ الفاضل، لأنه علمني ما لم أكن أعلمه عن أبيه، مع أنني عاصرته، وعلمت بوجوده في كل من قصر "العشورية" بالجرف، و"أولاد يحي" بالسيفة، ولكن لم يكتب لي أن أجالسه،

وأحرى أن أستفيد منه .... ومن علامة سعادته : أن تستمر الاستفادة منه ميتا ، كما كانت الاستفادة منه حيا،

فرحمه الله في الأولين والآخرين، والحمد لله رب العالمين

وكتبه على عجل راجي عفو ربه وغفرانه :محمد بن محمد العربي العمراوي
سيدي سليمان في 7 ربيع النبوي 1430 هـ

كلمة الشيخ الوقور: عبد الله بن المدني[171]

بسم الله الرحمان الرحيم

الحمد لله الذي علَّمَ بالقَلَم علَّم الانسان ما لا يعلم ، مَيَّز العلماء عن المؤمنين بمزيد رَفْع الدَّرجات، وخلَّد ذِكْرَهُم في الصَّالِحات، والصلاة والسلام على سيد الكائنات، وإمام السَّادات، سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وأصحابه ذوي المكرومات .

أمَّا بعد فإنَّ الأخ الكريم، والصديق الحميم، السيد "محمد الصغيري" ابن العلامة "الحاج محمد بن العربي" قد أحسن بي الظن، مُلْتمِسا مِني أَنْ أُسَجِّل شهادة في حق والده العلامة الحاج محمد، فقُلْتُ أَوَّلاً مُتمثِّلا بقول الشاعر:

يَظُنُّونَ بِي خَيْرًا وَمَا بِي مِنْ خَيْر ... وَلَكِنِّي عَبْدٌ ظَلُومٌ كَمَا تَدْرِي
سَتَرْتَ عُيُوبِي كُلَّهَا عَنْ عُيُونِهِمْ ... وَأَلْبَسْتَنِي ثَوْباً جَدِيدًا مِنَ السِّتْرِ
فَصَارُوا يُحِبُّونَنِي وَمَا أَنا بِالذِي ... يُحَبُّ وَلَكِنْ شَبَّهُونِي بِالْغَيْرِ
فَلاَ تَفْضَحْنِي في الْقِيَامَةِ بَينَهُمْ ... وَكُن لِي يَا مَوْلاَيَ فِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ

وأقول ثانيا : إنَّ العلاَّمة الْمذكور عرفْتُه منذ بداية السبعينات، وأنا إمام في قصر "أولاد يحيى": عليه و قار العلم والعلماء، وأدب الْحِلم والْحُلماء، لايتكلم إلاَّ إذا كان في الكلام مصلحة، شَغُوف بالعلم، عاشق لمذاكرته، لا يجمعني به مجلس، ولا يحضر في مناسبة إلاَّ طرح فيه مسائل عِلْمية، منها المتعلق بالتفسير، ومنها

---

(171) الشيخ عبد الله بن المدني، المشرف على المدرسة القرآنية ب "بني ملال" وهو من العلماء المعاصرين، درس في سجلماسة وتخرج فيها، نفع الله بعلمه أفواجا عديدة من الشباب، ونفع الله بدعوته العباد، ورزق الله لوعظه القبول والسداد.وحببه الله لأهل الايمان والصلاح.

المتعلق بالفقه، والحديث وعلوم أخرى مختلفة، ولا سيما المشاكل المستشكلة، حريصا على حلِّها، مُبْتغِيا لنفسه ولغيره النفع بها، فإذا سمع الدليل فيها، تَهلَّلَ وجْهُه، وانْشَرَحَ صدْرُهُ، واطْمَئنَّ قلْبُه، وفرِحَ بها فَرَحَ الظَّافِر حاجَتَه، العاثر على ضالته، لم يفارق بَذْلَ العلم وإعْطائه لِطَلَبَتِه، وبَثِّه في أَهْلِه، حيث ما حَلَّ وارْتَحل، على غِرار ما كان عليه العلماء والفقهاء، رحمهم الله، مِن مدارسهم المتنقلة من مسجد الى مسجد، بِحَسَب إمامتهم في المساجد، كوالدي رحمه الله، الذي كان نموذجا متفانيا، يُضْرب به الْمَثل في هذا الشأن،

ما حضر الفقيه الجليل مناسبة إلاَّ ذكر فيها الناس بآيات ربِّهم، وأَحاديث نبيهم، كان يَمشي في الناس بنور العلم وهَدْيه، لايَمَلُّ من سؤال السائلين، ولا يَتَبَرَّم من تكرار المتسائلين، بَيْني وبَينَه مَحبَّةٌ خالِصة، وصِلَة خاصة، لازِلْتُ حافِظا لِوُدِّها وَفِيَا بعهْدِها، والذي يُسَلِّي الفُؤاد، ويُثلِج الصدر بتجديد المراد، أنَّه بِحمد الله، خلَّف ذُرِّية صالحة، وأَبْناءَ بَرَرَة، ورثوا علمه النافع، نَحسبهم كذلك، ولا نزكيهم على الله.

بارك الله فيهم، ونفع بِعِلْمِهِم، وجَعَلَهُم قُدْوة صالحة لِمن بعدهم، إنَّه سميع قريب مُجيب .

والحمد لله رب العالمين.
وكتبه العبد الفقير إلى مولاه الغني:
أبو عطاء الله عبد الله بن المدني.

كلمة الدكتور عبد الله صغيري[172]

الْعَمُّ الفقيه مَحَّض نفسه للعلم والعبادة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله

أهنئ تهنئة حارة محرر هذه الرسالة ابن العم والأخ العزيز الأستاذ الفقيه السيد الحاج محمد صغيري

فالرسالة مفيدة غاية الفائدة، مُمْتِعة غاية الْمُتعة، وهي بحث علمي رصين، مؤسَّس على منهجية مُحْكمة، ومَصوغ في قالب بديع، وأسلوب متين، ومستند إلى مادة في غاية الأهمية، ما كان لها أن ترى النور لولا هذا الجهد الـمُثاب

لقد خبر الأستاذ المؤلف أباه العالم، أدق ما تكون الْخِبْرة... خَبَر نفسه وفكره ووجدانه... خبَر خواطره وهواجِسه ومواقفه... خبَر طِباعه ونزوعاته، ومفتاح شخصيته... فجاءت الترجمة سيرة حَيَّة تنْبض بالحياة، لأنَّها تعْكس حياة شخصية مُمتلئة بأثْمن ما في الحياة: القرآن والحديث وعلومهما، إن هذه الترجمة تعد بحق إسهاما جادا، وإنجازا مقدرا، على درب ترصيع ديوان أعلام تافيلالت العالِمة

في هذه الكلمات القلائل، والتزاما ببعض الوفاء لروح العم الطاهرة، أسْهم بجهد الُمقِل، في تقديم ما عنَّ لي من خواطر وأفكار ذوْبَ شهادة أقدمها إهداء لروح العم المرحوم (بَّايا).

مـذ فتحت عيني على المسجد، ولَمَّا يصل عُمري بعد السنة الخامسة بالسيفة العامرة،كانت رحاب مسجد "أولاد يحي" تزدان بدروس العلم التي يؤطرها العم

---

(172) الأستاذ عبد الله صغيري، دكتور في الأدب العربي، وهو الآن أستاذ بجامعة الراشدية ، وعضو جمعوي نشيط وفعال، وعضو بالبرلمان المغربي،

في الفقه واللغة والبلاغة وغيرها، كانت حلقات المدارسات التي يزَّيَّن بها المسجد ضُحًى، مما يؤثث المعمار العِلمي والديني للمنطقة... إذ لم تكن تلك الحلقات تُعقد بشكل عفوي أو طارئ، بقدر ما كانت تخضع لبرنامج دقيق، وخطة مُحكمة تبُزُّ بِهما الجامعات، من حيث طبيعةُ المادة كمًّا وكيفا، ومن حيث نوعيةُ الخريجين... ولا غرْو فكثير من طلبة حلقات العم، تَخرَّجوا أعلاما ومراجع في تخصصات لا يمسك ناصيتها إلا الأشِداء، كان أئمة المساجد بكثير من قصور تافيلالت يفِدون على السيفة بدراجاتِهم الْهوائية البسيطة...يقصدون حلقات العم في حِصص راتبة، يتدارسون الْمُتون، بما هي نصوص جوامع لخلاصات العلوم...وكان من الطلبة المواظبين على دروس العم في هذه الفترة بالذات: أخواي السيد "أحمد" والسيد "الحاج عبد الرحمان"

ما بين السنة الخامسة والعاشرة من عُمري...كنت أُديم معه صلاة الجمعة، وأحضر بعض حِلَقه، وأتأمل خَلَواته ومحاريبه وقراءاته وأذكاره... وكان ذلك غَرْسا مُباركا، ما لبَثتْ قُطوفه الدانيات أَنْ أيْنعتْ بالْخيْرات، فحُبِّب إلي منذ التفتُّق الأول مجالسُ العلم، ومدارجُ التَّديُّن

كان إذا أشكل علينا أمر من أمور اللغة ونحن تلاميذ في مرحلة الدراسة الابتدائية... أو أعجزنا أحد الْمُدرسين بأي ضرب من ضروب الإعجاز، ما كان الموضوع يُثير بالنسبة إلي أدنى حرج... وكيف أُحرَج في مسائل اللغة، وحُجَّة اللغة لم يكن سوى عمي ... وكان هذا يُمثِّل لي عُنصر افْتخار بين الأقران، بل بين الأساتذة، وأَذْكُر أنَّه ذات يوم قصدتُه بالمسجد لاستجلاء قضية لغوية، كانت مناط تكليف من أحد المعلمين، وبعد التحية المفروضة بما يليق بمجلس العلم، عرضت الإشكال... وكان عمي في مثل هذه الأحوال يختبر طلبته أولا، فأشار إلى أحدهم – وقد توفي منذ تلك الفترة– وهو مولاي الهادي، إمام قصر قصيبة القايد ... ودون عناء تصدى مولاي الهادي للمسألة، مسلحا بالشاهد من متن الألفية:

وجُرَّ بالْفتْحَـة ما لا ينْصرِف   ما لم يُضَفْ أَوْ يَكُ بعْدَ ألْ ردِف

فسر ذلك عمي، الذي ابتسم حتى ظهرت نواجذه المبيضة... أمَّا أنا فطِرْت بصيْدي الثَّمِين، وأنا أنضح بغاية الفخار

منذ رحيلنا إلى أرفود سنة 1984 وإلى أن توفاه الله إليه سنة 2005 بمكناسة الزيتون، كُنتُ أداوم على زيارته، وأنا تلميذ بأرفود، وطالب بمكناس، وأستاذ بملَّعب، وأرفود، والرشيدية، وكان كُلَّما زُرته يفرح لزيارتي، ويُعْرب عن فرحه بأَشْكال من الترحيب، وهو الذي لا يأبه إلا لمن أراد... أُسلِّم عليه، فيضْغَط على يدي، ويظَل مُمسكا بِها ... يسألني عن أحوالي الدراسية أكثر من أي شيء آخر ...وبيْن الفِينة والأُخْرى، يفاجؤني طالبا مني إعراب هذه الآية أو تلك، أو وجه هذا الإعراب أو ذاك، ليطْمِئن إلى قُوة ومَتانة معْلوماتي... وأتصَبَّب عَرَقا خشْية أن أُخيِّب ظنَّه، ... فلا أهدأ إلا إذا سيطرت على الموقف بالحجة والدليل

عندما هممت بالزواج قصدتُ عمي بالسيفة أستشيره، فكان لي رحمه الله نعم المشير، ونعم السند

حين توفي أبي رحمه الله، حضر العم بعد أقل من ساعتين، وهنأني على ما وفقني الله إليه من صحبة أبي، والعناية به خلال سنوات مرضه القاسية، ومضيت بالعم إلى الوالد المُسَجَّى... كشف عن وجهه، وقبَّله بين عينيه، مُذْرِفا دمْعات صامتات ناطقات، ودعا له بالمغفرة ... وبعد انصرام أيام العزاء غادر العم رحمه الله، مهنئا عند الوداع كما هنأ عند القدوم

يُمثل عمي الحاج محمد علما من الأعلام الشامِخة لتافيلالت، علما نموذجا في العلم، والتعليم، والعبادة، والتربية

لم يكن للدنيا حظ في فكره أو إحساسه، بله أن يكون لها موقع في جدول أعماله... مذ عرفتُه ما عرفتُه إلاَّ مُعلما، أو خطيبا، أو مُدرِّسا، أو مُتعبِّدا، أو مُختليا، أو واصلا لرحم... حِلقٌ ومنابر ومحارب ... دوائر محدودة لا يتعدَّاها إلى سواها...وهي دوائر لا يتجرَّد لها إلاَّ أُولو العزم ...فلم تعرفه الأسواق، ولا

الشوارع، و لم تعْرفه الحدائق ولا المزارع، بل عَرفَتْه مُنتدَيات العِلم و المْجامع ، ومحاريب الجوامع

كان عمي الفقيه، رحمه الله الحجة في تافيلالت...مَحض نفسه وأخْلصها للعلم والعبادة... ولا أشرف من العلم والعبادة. فهنيئا له بما عمر به في حياته، وهنيئا له بعد مماته، وهنيئا لنا ولتافيلالت العالمة، بأفضال سيرته، وأسرار بركاته

كلمة الدكتور الحاج المهدي باباخويا[173]

حدِيثي عن شخصية العالم الجليل سيدي "الحاج محمد بن العربي الصغيري" يتركّز على الجوانب التي لَمستُـها بنفسي، وشاهدتُها متجسِّدة في سلوكه ومجالسه، وكان لها أثرٌ في حياتي.

– كان رحمه اللـه ذا مهابة، وهيأة تدل على الوقار، والعلم والتقوى .

– يُعلِّمك بأفْعاله وأخلاقـه، قبل أقواله، فلقد تعلمت منه: السُّنن الراتبة، والطُّمأنينة في الصلاة.

– ما سمعتُـه يرفع صوته إلاّ بالآذان، كان رحمه اللـه مُتخلِّقا بأخلاق العلماء، لايَهتم إلا بما فيه فائـدة، فكانت مجالسه تَخلوا من اللغـو والقيل و القال، ولا يُحب أن تُنتهك فيها حُرمة أحـد.

– كان رحمه اللـه ذا شخصية قوية، تتميز بالْحِياد، والبُعد عمَّا يقع بين الناس من خلافات، فكان يُحب الجميع، ولا يَميل إلى فريق دون آخر، كان حريصا على جمع الكلمة، فأحبَّـه أهل القصر[174]، وكانوا يلقبونه ب "الفقيه الكبير" تَمييزا له عن الشيخ سيدي "محمد بن التهامي"[175] الذي كان مُهْتما بتحفيظ القران الكريم

---

(173) زميلي الأستاذ الحاج المهدي هو أحد أبناء قصر العشورية الذي قضى فيه الوالد حوالي ثلاثة عقود من حياته، والأستاذ من مواليد قصر العشورية سنة 1959 وهو الآن أستاذ بمدينة "مكناس" وخطيب بأحد مساجدها.

(174) أي قصر العشورية وهو أحد قصور مركز الجرف، يوجد هذا القصر على ضفة "وادي غريس" وتخترق غابته الطريق الثانوية الممتدة بين دائرة "أرفود" ودائرة "تنجداد"

(175) الشيخ سيدي محمد بن التهامي مومني، أحد الأ قطاب البارزة، والشخصيات القرآنية المتميزة، في العناية بالقرآن الكريم وخدمته، تحفيظا، وترتيلا، ورسما، وهب حياته لذلك، وتتلمذ =

للطَّلبة: حِفظا، ورسْما، وقراءة، في حين، كان الشيخ سيدي الحاج محمد بن العربي مُـهتمًّا بتدْريس الطلبة الفقـهَ، والعلوم الشرعية واللغوية، والوعظ والإرشاد، والخطابة في الأعياد والمناسبات .

– تعلمتُ منه حُبَّ القراءة والكُتب، كان رحمه الله تعالى أوَّل مَن حبَّب إلي التَّفقُّه في الدين، وحُب العلم، حيث كان يَمُدني بالكُتب الفِقْهية واللُّغويـة.

– كان في مَجالسه ودُروسه يُفيد الكبير والصغير، والعامِّي والمثقف، لما فيها من تنوُّع في المعارف، فكان الـمُستمِع له، مهما كان مستواه، يَخرج بفائدة، لم يكن رحمه اللـه مُمَلا في دروسه ومواعظه، لأنَّـه كان يُنوِّع المعارف، و يوظِّف القصص والأمثلة التي تشُـدُّ السامع إليه، كان رحمه اللـه لا يأتي في دروسه إلا بما ينفع الناس في دينهـم، فلقد انتشر في زمانه فقه الدين، خاصة الضروري منه، فاشْتهر القصر بالفقه، وتحفيظ القران الكريم، تعلمتُ من مواقفـه وسلوكه وتدريسه ووعْظه وتوجيهاتـه، اللِّينَ والتَّدرُّج في مُحاربة البدع، والأمر بالمعروف النهي عن المنكر.

فرحم اللـه شيخنا الجليل، لما أسداه للقصر من خدمات، لازالت آثارها بادية في تديُّـن الناس، خاصة فقه العبادات، و لازالت أقوالـه يستشهد بها الخاص والعام.

= عليه عدد كبير لايحصى، وحفظ القرآن على يديه خلق كبير من أبناء المنطقة وخارجها، وكان مقصد الناس من كل جهات المغرب الحبيب، كان ـ أطال الله عمره ـ يتقن رواية ورش من طريق الآزرق، يتقن رسمها، ويحفظ لذلك كثيرا من القصائد التي تعتني بالرسم القرآني، ويتقن تجويدها، ويحفظ حفظا بالغا "الدرر اللوامع في أصل مقرإ الإمام نافع" و"المقدمة الجزرية" ويستحضر قواعد هذه المنظومات، كما يستحضر الطالب سورة الفاتحة، وله طريقة متميزة في تدريس قواعد الرسم وتجويده، وتطبيقها لطلبته أثناء الدراسة، وكان له إلمام عام بالقراءات، فكان يحفظ متن «ا لشاطبية" ويستشهد بأبياتها كثيرا، جزاه الله عن القرآن خير جزاء، وجعل القرآن نورا له في قبره، وشفيعا له عند ربه، قرأت عليه بحمد الله القرآن مرتين، وقرأت عليه "الدرر اللوامع" و"المقدمة الجزرية" و"تحفة الأطفال"و"نصرة الكتاب"و"محمول الوصلي" و"نصاص الرسم" ونظم الهبطي في العدة، ومورد الظمآن في فني الرسم والضبط. وهو إلى كتابة هذه السطور إمام وخطيب بقصر العشورية ، المشار إليه سابقا.

كلمة الدكتور محمد رفيع[176]

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه أستعين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين، وعلى آله وصحبه وإخوانه وحزبه إلى يوم الدين، وبعد

حيا الله العالم الأجل، ابن العالم الأشم، أبا زكرياء، محمد صغيري، الذي كان السبب بهذا المكتوب الجليل الطيب، في كتابة هذه الكلمات البسيطة، عن والده الكريم المرحوم، وحيا الله شقيقه العالم الشاب، الموسوعي الفاضل المفضال، عبد العظيم صغيري، الذي أحسن الظن بي، واصطفاني مشكورا مأجورا، لأقول كلمة عن والده الكريم، أسكنه الله بجوار محبوبه سيدنا محمد صلى الله عيه وسلم في الفردوس الأعلى.

وإن مما أسرني في هذا المكتوب المبارك، توفيق الله عز وجل لحبيبنا أبي زكرياء، في تحقيق مقاصد ثلاثة محمودة: أحدها أداء واجب البرور، الذي لا ينقطع بوالده في العلم والنسب بهذا المكتوب الجليل، الذي سيخلد في الأجيال إلى ما شاء الله.

ثانيها أداء واجب النصح لأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، بتقديمه لهذا النموذج الفذ، من الرجولة الإيمانية العلمية، إذ بذكر صلحاء هذه الأمة وعلمائها وعظمائها، ترتفع همم الأجيال، وتشحذ إرادتها، وتتنزل البركات، فسر عطاء الأمم وقوتها في تراثها العلمي، وقيمة هذا التراث في نوع وعدد من أثله من رجال العلم والمعرفة والصلاح.

أما ثالثها فهو تحقيق إضافة علمية جليلة، بهذا العمل المبارك، الذي يندرج في سلك التأريخ لسلسلة من سبقنا بالعلم والإيمان، من علماء المغرب وصلحائه وخياره، جعلنا الله خير خلف لخير سلف.

---

(176) أستاذ الأصول والمقاصد بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس

أما الحديث عن المرحوم المترجم لـه، سيدي الحاج محمد بن العربي صغيري، فهو حديث عن جهبذ من جهابذة العلم والمعرفة، وجبل من الورع والخشية بهذا البلد الكريم، رجل لاكالرجال، جمع صنوف العلم والمعرفة، من مشايخ القرويين الراسخين فأوعى، وتأدب بأدب مشايخ السلوك، فاكتمل علمه، ونفع الله به هذا البلد وأهله، ومعلوم أن العلم والسلوك الايماني، لا يجتمعان في عالم إلا اكتملت رجولته، وانتفع الناس بعلمه، وهذه ميزة هذا الرجل المرحوم، وسر انتفاع الناس بعلمه في هذا البلد الأمين بحمد الله، وكأني بالرجل قرأ قول الله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[177] فامتثله علما وأدبا، ووقف عند قوله سبحانه: ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾[178] فعمل بمقتضاه.

أما صلتي بالرجل، فمحض فضل الله تعالى ومنه، وذلك حين أن أكرمني سبحانه بمجالسة هذا الجبل من العلم والإيمان، ومشافهته ببيت ابنه البار، الحبيب الكريم، سيدي عبد العظيم صغيري حفظه الله، ب "بني ملال" بمناسبة زيارتي لـه، فجالست الرجل وكأني أجالس أحد أكابر السلف رضوان الله عليهم، فالرجل لا يفتر لسانه عن ذكر الله، وغالب كلامه جواب عن سؤال، أو تلبية طلب، وكأنّه ألزم نفسه ألا ينطق بغير ذكر الله، امتثالا لحديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم"[179].

ومما أدهشني في تلك الجلسة المباركة، حرص الرجل الشديد على الصلاة في الجماعة بالمسجد، والتبكير في حضور الصلاة، رغم وهن العظم، وعجز البدن،

---

(177) سورة فاطر من الآية 28.

(178) سورة الزمر الآية 10.

(179) الترمذي في سننه (2322)، وابن ماجة في سننه (4112)، والبيهقي في شعب الايمان (1708)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (135)، وغيرهم.

فهِمم الرجال العظام، حقيقة تنوء بحملها الأبدان، ورحم الله من قال: "إذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام".

وأثناء حديثنا معه رحمه الله في الطرق الصوفية، بادر حبيبنا سيدي عبد العظيم بسؤاله عن الحضرة الصوفية، وما قيل عنها من إنكار بعض أهل العلم، فأجاب بكل هدوء ووقار، بجملة جامعة لن أنساها ما حييت، وهي قوله: "أقرها من لا ينكر عليه، وأنكرها من لا يرد عليه"، كلام مقعد مرتب لطيف، يحمل في دلالته من العمق والإحاطة بالموضوع، ما لا يخفى على أهل العلم، وقد نسبه رحمه الله إلى بعض مشايخه، رحم الله الجميع.

وهذا شأن أهل العلم والسلوك، في بُعد النظر، وعُمق المعرفة، لا يتكلمون ولا يخوضون فيما اعتاد الناس أن يخوضوا فيه، لكنهم إن تكلموا، أو جزوا لفظا، وأفسحوا معنى، وأفادوا علما وأدبا، لأن الله تعالى ينطق أولياءه حكمة وصوابا، ليغترف من وفق من الناس لصحبتهم من علمهم وأدبهم،

أسأل الله العظيم، رب العرش الكريم، في ختام هذه الكلمة الوجيزة، في حق هذا الرجل الكريم، أن يكرمه في جنة الخلد بما هو أهله سبحانه، وأن يقر عينه في روضة قبره، بأولاده دعاء وصلاحا، آمين، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

كتبه راجي عفو ربه محمد بن محمد رفيع ظهيرة الاثنين 2 جمادى الأولى 1430هـ

27 أبريل 2009م بفاس المحروسة

كلمة الأستاذ عبد العلي المسئول[180]

إن الناظر في السيرة العطرة للحاج محمد صغيري رحمه الله تعالى يقف على همة الرجال كيف كانت في طلب العلم وبذله للسالكين سبيله، في غير رياء ولا سمعة، ولا طلب لجاه ولا رياسة، وما كان ذلك ليكون لولا إدراك الفقيد حقارة الدنيا وخستها، وعظم الآخرة ودوامها، حيث شمر على ساعد الجد، معلما ومربيا ومقبلا على ربه جل وعز بالذكر والصيام وتلاوة القرآن والتفكر، فنفع الله به الخلق وانتفع.

لقد من الله عليّ بزيارة سيدي الحاج محمد بالسِّيفة شتاء سنة 2000 للميلاد صحبة ثلاثة من أخلائي، وكان في استقبالنا ابن الفقيد الأستاذ القدير والعالم الجليل عبد العظيم صغيري الذي تربطني به روابط المحبة والتقدير، حيث رافقنا إلى بيت الوالد، وبعد بُرْهة من الزمن، طلع علينا الحاج محمد بوجه طلق، معتما ولابسا للبياض، فذكرني بمالك رحمه الله تعالى إمام دار الهجرة، فطفق يُرحب بنا بما يقتضيه عُرْف تافيلالت من إكْرام للضيف وبسط للوجه، والشيء من غير مَعْدِنه أغرب، لكن إذا علمنا أن ذلك من أصول وأعراف هذه المنطقة ارتفعت الغرابة.

وَلَيسَ الجودُ مُنتَحَلاً وَلَكِن　　　عَلى أَحسابِها تَجري الجِيادُ

جلس إلينا رحمه الله وتجاذَبْنا أَطْراف الحديث في موضوعات متنوعة، وبخاصة في نُكَت نَحوية وفِقْهِية وأُصولية، فعلِمْنا أننا على الخَبير سقطنا.

(180) أستاذ الدراسات القرآنية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، ورئيس مسلك "القرآن ومستويات الدرس اللغوي" للدراسات العليا بفاس، من المتخصصين في علم القراءات تدريسا وتأليفا، من أهم مؤلفاته "الإيضاح في علم القراءات ؛ و"معجم المصطلحات القرآنية".

ولقد منّ الله عليّ ثانيا إذ حضرت جنازة الفقيد، التي شُيعت من قبل جم غفير من محبيه وطلبته وأقربائه، فتذكرت قول الإمام ابن حنبل حين امتحن في قضية خلق القرآن : "قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم الجنائز"، وفعلا فقد كانت جنازة الحاج محمد مهيبة، حضرها العلماء والصلحاء والشرفاء وأهل السياسة والفكر.

وكفى الفقيد شرفا أنه بث علما نافعا في صدور الرجال، وأفنى شبابه في التعلم والتعليم، أرجو أن يجد جزاء ما قدم عند رب كريم بر رحيم، وكفاه فخرا أنه ترك ذرية متمسكة بالقرآن الكريم شرعة، وبالسنة المشرفة منهاجا وسلوكا (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم).

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

كتبه عبد العلي بن عبد الرحمن الغنجاوي المسئول ضحوة يوم الجمعة

26 جمادى الأولى 22/1430 ماي 2009.

كلمة الأستاذ عبد العظيم صغيري(1)

الحاج محمد بن العربي
مسيرة العظمة والتمييز

استهلال

"عليكَ بالرُّكن العظيم؛ كتاب اللـه تعالى"، كلمات لازال رجْعُ صداها يتكرَّر في مَسامِعي، وأَنا أَكْتب هاتِـه الشهادة بِمِداد البِرِّ، وجِبْر الوفاء، لِمن ربَّى وزكَّى، ودَرس وعلَّم، والدي العلاَّمة الْحاج مُحمد بن العربي رحمه الله وأَسْكنه فسيح جنَّاتـه.

ولقد قلَّبْت النَّـظر في مَسيرتِـه، فألْفيْـتُها حافلة بالعَطاء، ملأَى بالعِبَر والدلالات، واطْمأَنَّتْ نفْسي، ومعها قَلَمِي، لوصْف هاته الْمسيرة بـ"العَظَمة والتَّميُّـز"، عِبارتان تَخْتزلان حَقِيقة ما كانتْ عليه شخْصِية الوالد من فرادة، يُمكِنُ إبْراز مَعالِمِها في الآتي.

المعلم الأول: الهيئة أولا.

يُخيَّـل للرَّائي الواقف أمام الوالد، أَنَّـه أَمام شخْص تُذكِّرك هيأته ومظْهره الْخارِجي، بـالسَّـلف الصـالح لِهذه الأُمة، فأَول ما يُثيـرُك في هيئته، الضَّخامة

---

(1) أخي عبد العظيم أحد أبناء المترجم له، من حفظة كتاب الله في سن مبكرة، حاصل على دبلوم الدراسات العليا من كلية الشريعة ب"فاس" و"دار الحديث الحسنية" وفي هذه الأيام سيناقش الدكتوراة ب"الرباط" وهو أحد الشباب النشطين في مجال الدعوة، أسأل الله أن يثبته ويعينه ، حرفته الآن: أستاذ بمركز تكوين المعلمين ب"بني ملال" من مواليد 1390 هـ 1970 م

والامْتلاء، وقامة فارعة الطول، ومنْكِبان عريضان، يَتوسَّطُهما رأس ضخْم، تزينه عمامة بيضاء، ذات الْتِواءات كثيرة، كأنَّما عن قصد كثَّرها، واهْتمَّ بِها، لِتحْمِي ما في جَعْبة رأْسِه مِن عُلوم ومَعارف.

حيثُ ما حلَّ وارْتحل، يَمْشي مُجلَّلا بالْهَيبة والْوقار، لا تُخْطِئ الْعين نظافة لِباسه، وجَوْدة جلابِيبه، ونَضارة سَلاهِيمه[2]، الَّتي يَضْربُها على مَنكِبَيه، مُتحفِّزا في مِشْيته، مُسرِعا في خُطاه، كأنَّما ينْحدِرُ مِن صَبب.

له وجْه صَّبوح، ووجنَتان مُمْتلِئتان، تشُوبُهما حُمْرة خَفِيفة، ولِحْية كذلك، يَحرص عليها تَهْذيبا وتشْذِيبا، ولا يأخذ منها إلاَّ ما يُشوِّش على نَضارة وجْهه الْمُشرق كالقمر، خاصَّة عِندما تَعلُوه ابْتسامته الآسِرة، التي كُنا نتشَوَّفُها ونتطلَّع إليها، وهو يَحْكِي نوادره وطَرائِفه .

عُرِف والِدي بحُبه للطِّيب، وحِرْصه على تضْميخ جَسَده،- خاصة أنفه- تَرى آثار ذَلك بادِيا لِلْعَين على مَلابِسه وأَغْراضه الْخاصَّة.

مِن جَميل ما يُذكَر في هذا الصَّدد ، أنَّ أحَد طلَبَته، تَطوَّع مِن تِلْقاء نفْسه، لِيكُون "الْحلاَّق" الشَّخْصِي له، يَتفقَّده بين الْحين والآخَر، ويأْتِيه في أوْقات مَعلُومة - غالبا بعد العَصر - لِيأخُذ من شعر رأْسِه الذي يُضايقُه كثيرا، وكَم نستمتع بِمنْظرالوالد وهُو ينْحَني أمام الْحلاَّق، في حِرْص إخاله مقْصودا، لِيترك فرْوة رأْسه في تَماسٍّ مُباشر، مع ما يُلْقيه اللهُ فِيه من رُؤى وأفكار، دُونَما عرْقلة من شَعَر أو نَحْوه.

المعلم الثاني : لا نبات بلا ثبات

"لا نبات بلا ثبات" كلِمةٌ قالَها "عبد القادر الجيلالي" رحمهُ الله، مُبينا أَنَّ الْحِفاظ على نَبات الإيمان والأَخلاق، حتى تنضج ثِماره، ويُؤتي أُكلَه، يَتَطلَّب ثَباتا وصبْرا، وطُول نَفَس.

---

(2) لا يلبس من السلاهيم إلا الأبيض أو الأسود، ولا يلبس الأحمر، رغم كثرته عند رجال المنطقة، لأنه لباس العوام كما يقول الوالد.

سُلوك الوالد نَموذج تطبيقي لِهاتِـه الْمقولة، لِسانه يلْهَج دائما بذكر اللـه، يشْهد لذلك حِرصُه على جِلْسة الشُّروق، وصبْره على أَداء الأَذكار الْمختلفة على كُلِّ الأَحْوال، في فصْل الشِّتاء بعد رُجُوعه مِن قِراءة حِزب الفجر، يتلَفَّـعُ بغطاء يقيه قَـرَّ البَـرد، وينْخـرِط في تراتيله وتسْبيحاتِـه، حتى تُشرق الشَّمس، حيثُ الْموعِد الْمُفضَّل عنده لشرب أَقْداحِ الْحَساء، الوجْبة الْمُفضَّلة والدَّائمة عِنده لِلإفطار، مَع الْجَيِّـد مِن أَنواع التمر "الفقُّوس خاصَّة" والشاي الْمُنعْنع الرَّفيع.

جُعلَتْ قُرة عَين الوالد في الصلاة، يَجِد فيها راحتَـه وسلْوانـه، وينْخرِط فيها انْخِراط الْمُسْتمْتِـع بالتَّجْربة، السَّابح في الْمُناجاة، الْمُتخفِّف بِها مِن الأَحْمال والأَثْقال، لِذلك لَم يكُن يَغْنِـيه في شيء ما يُلاقيه في هذا السَّبيل مِن أَلَـم ومَشقَّة، بل إنَّ هاتِه الْمشقَّـة، وذلك الأَلَم، كانا عُنوانا لصِدْقه، وثَباته، وصبْره، وجلَده.

أذكُر ويذكر إخوتي، ونَحن شبية حزاورة، أَنَّنا نسْتيقظ في الليل على صوت قراءته الْخافتة للقرآن، وهو يُصلي، وقد أَضْناه التَّـعب، فيضْطَر لِيتَّكِئ على سارية مِن خَشَب وسَط البيت شِتاء، ويسْتقْوي بسلك الغسيل صَيفا، بعدما يرفع إحْدى رِجليه مِن الأَرض، لتأخذ قِسطا من الراحة، يُعِينها على حَمل هذا الْجسد الذائِب في الوِصال مع ربـه عز وجل.

لا يَخْتلف الْحال عند الوالد في عِبادته بين اللَّيل والنهار، أَو السَّفر والْحَضَر، فلـم يكُن أَحد مِن أبنائِـه وأَقاربه – ولو جَهَد نفْسه ما جَهَد – قادرا على عَـدِّ صلاة النافلة عنده، وهذا دأبه، فحيثما حلَّ ضيفا أو زائرا، يتنحَّى في رُكن قَصِي لِيصلي.

يرى أنَّ مِن دواعي تَمسُّكِه بالإمامة و"الشرط"خاصَّة بعد كِبَر سِنِّـه، إعانته وإلزامه بأداء الصلاة جماعة في وقْتها.

من جِهَة أُخرى تَجلى ثبات الوالد رحمه الله ، وتَميُّز عبادتـه، في تَشوُّفِـه الدائم لـلحرمَين الشَّـريفين، حـجـا وعـمرة، ويذكـر مَن رافَقُوه في رحَلاتـه إلى الدِّيار الْمُقدَّسة، أنَّـه يُجاور الكعبة الْمشرفة، ويلازم الْمسجد الْحرام، ولا يَخرج منه إلاَّ للضَّرورة، يَحرص على صِيام النوافل، ومِن حسناته: أَنَّـه أَحْيى سُنـة الاعتكاف

طيلة حياته، في وقت تُنوسِيتْ فيه هاتِه الشَّعِيرة، يعتكف في العشر الأواخر من رمضان لوحده بالْمسجد، بعدما يستتر عن الناس بإزار أو نَحوه.

ولا أنْسَى اليوم الذي افترش فيه سَجَّادته في الطريق الْمارِّ أمام"مسجد النِّيجير بيفرن"، وهو طريق عُمومي، يستعمله الْمُشاة والسائقون، وانْخرط في صلاته، غير آبه بالْمِئات مِن التلاميذ الْمارِّين مِن حوله، بعد خروجهم من"ثانوية الأرز" في انْدِهاش وإعْجاب مِن قِبَلِهِم.

المعلم الثالث: الركن الأساس للعظمة: كتاب الله تعالى.

ما حرص الوالد رحمه الله في ترتبيته لأبْنائه على شيء، كحِرْصه على تَحْفيظِهِم كتاب الله تعالى، يُصْبح ويُمْسي على هذا الْهَمِّ، فجاءت النتيجة أن أبناءه الأربعة، حفظوا القرآن في سن مبكرة، أَقلُّهم خرج على يديه ثلاث سلكات كاملة، بالطريقة التقليدية الْمُتعارف عليها بتافيلالت: ـ الألواح الخشبية[3] والصمغ ونظام "الْمحضرة" وصُحبة الْمُرتبين ـ (الطلبة الْمتفرِّغين لِحفظ كتاب الله تعالى).

من عادته كُلَّما رأى علي فُتورا، أو لَمَح ما يدل على تبَرُّمي ونفاذ صبري، أنْ يقول لي: "عليك بالركن العظيم كتاب الله تعالى".

لم أفهم لَحْظتئذ جَلال هذا الكلام وعظمته، و لم أَسْتحضِر نُبل غايات الوالد وقصوده، وكنت أتساءل: لِماذا يرفُض الوالد قِيامي بواجبات السخرة للبيت. ويُكلِّف عِوَضا عنيٍّ مَن يقوم بِها مِن أهلِ البلد، كما أني أمتعض من مُسارعته لاسْتدعائي في مُستَهل كُل عُطلة صيفية، للذَّهاب إلى البلد، لأتفرَّغ لِحفظ الركن العظيم، تاركا خَلْفي، جاذِبية صيف "يفرن"، وروْعته وجَمالِيته .

لكنيِّ وأنا أَخُط هاته السُّطور، علمتُ ـ والوالد في ضيافة ربِّ الرُّكن العظيم ـ كم تَعِب في سبيل تَحْفِيظنا كتاب الله، وأَدْركْت دَرجَة الْعَنَت والْمَشقَّة اللذَين

(3) من بركات الوالد رحمه الله، أن هم تَحفيظ القرآن صار شأنا عاما عند جميع أبنائه وأحفاده، الذكور منهم والإناث، ومن العادات التي صارت من لوازم آل الصغيري، أن جميعهم يتوفر على لوحة خشبية خاصة به، وقد أخبرتني أختي "حسنة" لحظة كتابتي لهاته السطور، أنه لا يفصلها عن ختم حفظ القرآن إلا 4 أحزاب.

يُلاقِيهما، وفهمتُ لم كان يُجهد نفسه في تفْهيمنا أن القرآن الكريم هو الأساس الْمكين، الذي تُبنىَ عليه كُل العلوم، فإذا ثبت عند الْمرء حِفظ القرآن ، ثبت بعده كُـل شيء، و يُكرِّر على مسامعنا لتقريب هذا الفهم مثالا، مؤداه: أنه يَسهُل ترتيب الأمتعة ووضْعها على ظهر الْجَمل، قبل أنْ يستوي على قوائمه الأربع، مع ضمان عدَم سُقوطِها، أمَّا بعد ذلك، فمثال مَن يرتب هاته الأمتعة على ظهر الجمل الواقف كمن يرمي بِها ويُعرِّضها للتلف، وكذلك القرآن إنْ لم يُحفَظ ويُضْبط ، يصْعُب معه ضبط وحِفظ العُلوم الأخرى.

من مظاهر تَميُّز الوالد في هذا الباب، أنّـه يتَصَيَّد الْحَفظة الْمُجيدين للقرآن الكريم، تلاوة ورسْما، ويَصطَحِبهُم معه إلى البيت، ويُكْرم وفادتَهُم، ويُبالغ في التقرُّب إليهم، بل لعله يَستعْطِفهُم، لِيظْفر منهم بقراءة ثُمُن، أو رُبع معي، أومع أحد إخوتي، رغْبة في أن نسير على مِنْوالِهِم، ونقْتفي آثارهم، وقد يتكرَّرهذا الأمر مِرارا مع شيخي "سيدي عبد الكريم بن حيدة" حفظه اللـه.

مِن طريف ما يُذكر في هذا الصدد، أنَّ الوالد مُدمِن على خَتم سلكات مُتنوعة لكتاب اللـه، بشكل مُتواز، بعضها يَختمه في الصلاة، وأُخْرى في القيام والتَّهجُّد، أو بالقراءة الْمباشرة من الْمصحف، أو تكرار وتعهُّد لِلمحفوظ، خشية النسيان؛ وكثيرا مانُفاجأ بين الفينة والأخرى، ـ ونَحن على مائدة الإفطار، أو بُعيْد العصر، عندما يَحلو للوالد ارْتِشاف كُؤوس الشاي الساخن جِدًّا، ـ بصوته، وهو يفتتح السور الأخيرة من الْمفصل، عندها تَـنفرج أسارير الوالدة بالْبِشْر مُعْلِمَة إيانا أنَّ : "والدكم تبارك اللـه قد ختم سلكة لصالح أبَوْيه، فكُونوا مِثله"، هذه وصيتها أطال اللـه في عُمُرها ولا زالت.

في الأخير، لا أنسى اليوم الذي حَملني فيه نَزَقُ الطفولة ولَهوها البريئ، على التحلُّلِ سُويْعة من فترة الْحِفظ، لألْهُو مع زميل لي بالْجري في سطح الْمسجد، مِما ترتب عنه كسر لوحتي الْجميلة، الْمصنوعة من خشب الْجوز إلى نصفين، ساعتها ضاقت بي الأرض بِما رحُبت، ولَم أدْر كيف أُلاقي والدي، وأيُّ عُذْر أُقدم بين يديه، وقد فشى عند الطلبة لُجوؤهم إلى ضرْب ألواحهم بعضها بالبعض الآخر،

لاكْتِشاف الأَصحِّ منها والأمتَن، وهي تَجربة غالبا ما تَنتهي بتكسير الألواح، أو تشويهها على الأقل.

لكن الله لطف، ومِن نَباهة الوالد، أنه تصرف معي بطريقة حببتني أكثر في الْحفظ، وأَجْواءِ الْحفظ، ورُفقاءِ الْحِفظ، بل وأكرمني زيادة على ذلك، باصْطِحابي معه إلى السوق الأُسبوعي، لإصلاح اللَّوحة، وتَجميع أطْرافها، وأنا البدوي الْمتَلهِّف لاكتشاف مباهج السوق وعجائبه، وهكذا بَدَل أنْ يُعاقبني ، جازاني بِما لم يكن في الْحُسبان.

المعلم الرابع: دعامات العظمة أخلاق منتخبة وقيم مصطفاة.

في حياة الوالد، تُحافظ "العظمة" على تَميُّز خاص، سِمَتُه بُعْدها عن التَّكلُّف والتَّرفُّع والتكبُّر على الناس، إنَّها تتحصَّن بِمنظومة متكاملة من الأخلاق والقِيَم.

إن العظمة هُنا، انْخِراط صادق في الْمجتمع، وإنْصات هادئ لِهُموم الناس، تعايُشٌ مع الفقير منهم والغني، يُجيب دعوة الفقير، ويهَشُّ لَها دون تردُّد، يُحاور الفلاحين، ويُنصِت إلى هُمومهم، ويُسارع إلى التَّفْريج عن كُربِهم.

لا زلت أذكر صغار الفلاحين، وهم يتوافدون عليه، طلبا للْقرض، كما لازلت أشاهد الْمُذكرة الْخاصَّة التي يُدوِّن فيها أسْماء هؤلاء الْمُقْترِضِين، ويُتابع معهم مواعيد السداد، وفي أحايين كثيرة، يتنازل عن ديون بعض الْمُعسرين منهم، حدبا منه وشفقة على حالِهم.

على الرغم من ذلك فقد عُرِف الوالد بِحُبه للعُزلة، وتنكُّبه عن مَجالس العامَّة، التي يكْثُر فيها القيل والقال، وقد استعاض عن ذلك بصُحبة العِلم والعُلماء، ومُجالسة طلبة العلم، ومُرافقة الكُتب، ومَجالس الذكر[4].

عكف الوالد على تدريس العلوم الشرعية لطالبيها مَجانا، مُحتسباللـه، مدة تزيد عن ستة عقود من الزمن، في مَشهد فريد، يعكس أريَحية الوالد، ونُبل خِصاله، وقد

(4) أنيسه الذي لايمله، وجليسه الذي لايفارقه: الكتاب، وراحة نفسه ، وسعادة روحه: في الصلاة والذكر.

اصطحب معه هذا السلوك إلى مكناس، إذ بدأ في تقديم بعض الْمبادئ، لِمجموعة من الطلبة في النحو والفقه، بِمسجد "مرجان" بمكناس، وهو في العقد العاشر من حياتـه .

من تَجليات صبر الوالد، إصراره الْمطلق على انتزاع حقوقه، مهما كلَّفه الأمر، وفي سبيل ذلك، دخل في مواجهات مباشرة مع خصومه، وتَردَّد على الْمحكمة، لتنصفه ممن هضموه حقه، في أرض فلاحية خصبة، ويذكر بافتخار، ملاحِمه مع أحد القواد في فجر الاستقلال، وكيف حال بينه وبين ابتلاع واغتصاب أراضي شاسعة لآل الصغيري، بعد وفاة والدهم في سن مبكر[5].

المعلم الخامس : العظمة كل لا يتجزأ

جَميل هو استشعار العظمة في حياة الوالد، وجميل هو هذا الشعور الذي ينْتاب الْمنْتسِب له، برابط بُنُـوَّة، أو قرابة، أو تَتلْمُذ، لكن الأجْمل من ذلك كله، أن نتحسَّسَ هاته العظمة في كل جوانب حياة الوالد، صغيرها وكبيرها، دقها وجلها، أولِها وآخرها.

إنَّـه الْمُتقِن لكل عمل، فبالإضافة إلى إتِقانه للعبادة، وتفانيه في طلب العِلم، يذهب بنفسه ليُراقب أراضيه الفلاحية، يُشرف على جَنْي التمر، وتَخاله إذا تسلَّق النخيل، كأنَّـه فلاح مُتمَرِّس.

عُرف والدي بِضَبْطِه لِمصروف البيت[6] وتَـتبُّعه الدقيق لنفقاته التي هي مُعتدِلة، وتَحقيقا لذلك، يَخصِف نعْله ونِعال أبنائه، بل إنَّه يقوم بتفكيك دراجته النارية إلى أجزاء بسيطة، ويقوم بإصلاح أعطابِها على الدوام، ويُسوِّغ كل تصرفاته تلك

(5) كما يذكر باعتزاز، انتصاره على سكان قصر من القصور الْمجاورة لأرضنا الشاسعة ب"خنك الراعي" وسانده في ذلك أعيان قصر العشورية، أحسن الله مثوبتهم، وأجزل لهم العطاء في دار كرامته.

(6) من عادة الوالد أن يدس أمواله في بطون الكتب، وكنا نفاجأ بين الفينة والأخرى ، ونحن نعبث بها صبيانا، أو نقرأ فيها كبارا، بوجود كميات مهمة من هاته الأموال، لكن علمنا بضبط الوالد وعدم تساهله في هذا الشأن، كانا كافيين لقطع دابر الطمع في درهم منها أو فلس .

بترداده الْمتكرر لِمقولة: "الاقتصاد نصف المعيشة"، وفي كل مرة يُكرر على مسامعنا، خاصة بعد أن صار لكل واحد منا أسرته الْخاصة، نصيحة سَمِعها من إحدى وسائل الإعلام الْمسموعة وهي: "أن الريال إذا أضفته إلى الريال يشترى لك حزمة نعناع"، ما أحب النعناع إلى قلبه، يَحتفل ببراريد الشاي الْمُنعنع، ويَحتفي بِها، و يُجل الفلاحين الذين يَخصونه بالْجيد منها.

حكاية "النعناع" واحدة من الْحكايات التي تبين جوانب من جزئيات العظمة في حياة الوالد، كل تصرفاته، حتى اليسير منها، تشي بالعظمة والتَّميُّز، يَحرص مثلا على شراء اللحم بنفسه، لا يشغله شاغل عن ذلك، كما لا يَمنعه من ذلك أن يكون هذا العمل يوميا، لِحرصه على أكله طريا، وإذاوكل من ينوب عنه في قضاء بعض الأغراض، فالوكالة في شراء اللحم عنده مَمْنوعة، لذلك عُرف عنه تشهِّيه الدائم للجيد من اللحوم ، ورغبته التي لا تنْتهي في الازدراد منها.

حقا كُلُّ جزئيات حياة الوالد مسكونة بِهاجس العظمة والتميُّز، تتراءى لي اللحظة صورته، وقد شَمر عن ساعد الْجد، وأرخى نظارتيه إلى الأسفل، مؤذنا بالشروع في عادته الْمَوسِمية التي لاتفارقه، إنَّها إصلاح الكُتُب، وترقيعها وتقويم الأجزاء التالفة منها، وتقوية الآيل منها للتآكل.

يأخذ منه هذا العمل أياما عِدَّة، وتُعلَن حالة الطوارئ في الغُرفة التي تشهد هذا العمل، لأنَّها تتحوَّل إلى ورشة حقيقية، تتناثر في ساحتها قُصاصات الأوراق، مِن مُختلف الأحجام والألوان، إضافة إلى اللوازم الضرورية لِهذا العمل، مِن مقصات وأغلفة وأوراق مقواة، وأقمشة ولفائف، وزينةُ هذا النشاط، وواسطةُ عقده عندنا، اللصاق العجيب، الذي تتفنن في إبداعه الوالدة الفاضلة، وهو خليط متواضع، من الدقيق والْماء، يَتقوَّى مفعوله، كلما طُبخ على نار هادئة، ولِمُدة أطول.

من طريف ما يذكر، أن الوالد يستعمل في هاته الورشة كل ما يُصطلَح عليه تسمية ورق، يُدخِل في ذلك بقايا دفاترنا وكُتبنا الْمدرسية، والعُلب الكارطونية للمواد الغذائية، ووسائل التنظيف، وقد فوجئت مؤخرا بوجود مَجموعة من

الرسائل التي كُنت أرسلها إليه، تزين أغلفة مَجموعة من كتبه، لكن فعل "الرغاء"[7]، حال بيني وبين اقتلاعها مِن أماكنها.

إنَّها عظمة الوالد، وإن شئت قل إنَّها "العظمة" بـ"ال" التعريف التي تتبدَّى في كل شيء، حتى في حالات الانفعال والتوتر، فقد عرف عن الوالد، أنه إذا تكلم أسْمع، وإذا صفع أدمع، وإذا ضرب أوجع، وإذا حكَى أمتع، وإذا وصف أولع، وإذا حاجج أقنع، وإذا توسط أشفع، وإذا رغب عن شخص أقلع، وقبل هذا وأثناءه وبعده، هو في العبادة الأشجع، وإلى أبواب البِر الأهرع، وإلى صنوف الْخير الأجْمع والأسرع.

تتجلى عظمته حتى في الْحذَر واتقاء الْمكائد، فقد دأب – في قصد اخاله مقصودا – يسرد لنا قصته العجيبة مع رجلين من"دويمنيع"[8] أرادا شراء "بغلته" في السوق الأسبوعي، وأثناء مشاورتِهما، كانا يتحدثان ثنائيا بالأمازيغية، وعندما يُشْرِكان الوالد، ينطقان بالعربية، عندها ظن الوالد أنَّهما يريدانه بسوء، فتظاهر بالتردُّد في البيع، وطلب مُهلة، استغلَّها للفرار بِجلده، نشدانا للسلامة، واتقاء للمحذور، وعملا بالْمقولة التي يتترس بِها في مثل هذه الْحالات: "مِن الْحزم سوء الظن".

المعلم السادس : العظمة شعار لحياة الوالد، والتميز عنوان لتصرفاته .

تَنبَّـه فضيلة "الشيخ زحل" حفظه اللـه، في شهادته حول الوالد، إلى مسألة غاية في النَّبـاهة واللُّطف، وهي أنَّـه لَما تعرف على أخي فضيلة العلامة الأصولي الْمحدث سيدي محمد صغيري، قال في نفسه:"لا بد أن خلْف الولد سِرا يكْمن في والده؟"، وكذلك كان؛ فقد تَحقق حدْس "الشيخ زحل"، لَما التقى بالوالد رحمه اللـه، واكتشف فضيلته معنا أن "العَظمة" شعار لِحياة الوالد، والتَّميُّز عُنوان لتصرُّفاته.

---

(7) هذه هي التسمية التقنية التي كان يستعملها الوالد لهذا اللصاق العجيب.

(8) هكذا كان يصف الوالد، ومعه أهل تافيلالت الأشخاص الناطقين بالأمازيغية.

ينطلق الوالد في تطبيقه لِهذا الشعار، الذي تدل كل الْمُؤشرات على أنه حاضر في ذِهنه ووعْيه، من نفسية تشعر بالاعتزاز، وتَثق في قُدُراتِها إلى أبعد الْحدود، أذكر أني كلما طلبت منه تدريسي علم "النحو" أو "الفرائض"، قال وعلامات الرضى بادية على مُحياه، "لا تَحزن سأدرِّسُكَهُ في ليلة واحدة"، في دلالة على ضبطه لتفاصيل هاته العلوم، ومعرفته بدقائقها، والسبل الأيسر لتعليمها وتبسيطها للغير.

ارتباطا بذلك: مطالبنا الْمتعلقة باقْتناء لوازم الدراسة وشراء الكُتب، وكل ما يَمت إلى العلم والتعليم بصلة، لا اعْتراض عليها، ولاتسْويف ولا تعديل ولا تأجيل، بل مسارعة للتنفيذ، ومعها يهش الوالد ويبش في وُجوهنا، وهو يُنفِّذ هاته الطلبات، تَماما كما يهش في وجوه ضيوفه الْموسِميين، الذين لم يكونوا إلا معلمي أبنائه، إذ دَأَب على اسْتضافتهم سَنويا، وكم كان عظيما في تصرُّفه هذا، إذ يَحرص على خِدمتهم وهو الْمخدوم، ويستضيفهم وهو الْمستضاف، ويَحتفي بِهم وهو الْمحتفى به، في مَجالس الناس ومَجامعهم.

هذا السلوك من قبله، أغناه عن متابعة شؤون دراستنا النظامية، التي كُنا فيها مُميزين على الدوام، لكن لم يُغنه هذا البتة، عن الاهتبال بالقضايا الأساس عنده: التحصين العلمي التربوي لأبنائه.

لزم الوالد صحبة أبنائه في طفولتهم، يوقظني لصلاة الفجر، ويُردد معي أوراد الصباح، والأذكار التحصينية، من وإلى البيت، وعلى الرغم من أن الأعراف الْمعمول بِها في البلد، تقضي ألا يَحضر الْحزب الراتب، إلا حَفظة القرآن من كبار السن، فقد كسر الوالد هذا العُرف، يُجلسني بِجواره في الْمحراب، لأنْخرط في سلك القراءة الْجماعية الْمجودة للحزب، وكم هو جَميل صوتي الناشز، الذي يتميز بالدقة والرقة، وسط جماعة من الْمجِيدين الْمهَرة لكتاب الله تعالى، خاصة عندما أخطئ الْمسير في إحْدى الْمتشابِهات، التي يعْسُر على مثلي وقتئذ ضبطها، والتنبه لِمثيلاتِها، لم يكن أحد ليجرُؤَ أو يعترض على ذلك، فهيبة الوالد ومكانته، تَجعل الاستثناء في هاته الْحالة قاعدة.

لكن من قواعد العظمة عند الوالد التي لا تَخضع لاستثناء عنده، حرصه – الْمبالغ فيه– على تزويج أبنائه وأحفاده في سِن مُبكر؛ تَحصينا لهم، وصونا لِعفَّتهم وأخلاقهم[9]، أرسل إلي مراراً من يُقنعني بالزواج وأنا في الثامنة عشرة من عمري"[10] واستمر في إلْحاح، مباشرة بعد تَخرُّجي من مركز تكوين الْمعلمين، بالْمراسلة والْمهاتفة، تلميحا أحيانا، وتصريحا في أغلب الأحيان.

إن كنت أنسى فلا أنسى الْمحفظة "الْجلدية" الْحمراء، التي أهدانيها الوالد وأنا في السنة الثالثة من التعليم الابتدائي، وعمري ساعتها لم يتجاوز بعد، السنة التاسعة، مِحفظة أثارت حفيظة الْمعلمين، فضلا عن أصدقاء الدراسة، لتميُّز لونِها وشكلها، وجودة صناعتها، واستغرب الْجميع وجود مِحفظة بِهذا التَّميُّز، عند تلميذ في وسط قروي، يتقلَّلُ أهله في كل شيء، ويكتفون بِما يُحقق الْحاجة في مثل هاته الأمور.

لكن الأغرب من كل ذلك، أن أحد الْمعلمين انبهر بالْمحفظة، وسألني عن مصدرها وثَمنها، وبعد مدة يسيرة، لا تتجاوز الأسبوعين، رأيناه يلج الْمدرسة، وفي يده مِحفظة مثلها، فصرت أنا والْمعلم سيان، في الْمحفظة على الأقل، وكأن القدَر يقول لي، ستصير معلما مثله، فنعمت الْمحفظة هي، ونعم الوظيفة وظيفة التعلم.

المعلم السابع : إبداع العظمة و عظمة الإبداع .

لكي تكون عظيما وجب أن تكون مُبدِعا، وإذا وشَّيْتَ إبداعك بالعظمة، فقد جَمعت مُستلزمات التَّميُّز مِن أطرافها.

---

(9) لم يقتصر حرصه هذا على أبناء صُلبه وأحفاده، فقد ذكر لي أحد أبناء عمومتنا أن الوالد ألح عليه في أن يزوجه على نفقته، ونفقة الزواج في "تافيلالت" تكلف الكثير من الأموال

(10) تكرر هذا السلوك من أخي محمد السني و ابن أخي عبد الكريم. إذ طلب الوالد من مؤلف هذا الكتاب، القيام بإجراءات تزويجهما، ولما يحصلا بعد على شهادة الباكالوريا، أما واجبات ونفقات الزواج، فهي جاهزة لمن يلبي النداء.

هـذا هو حال الوالد ، فقد تفنن في إبداع العظمة، بدْءا مِن التأسي بالعُظماء، أمثـال الشيـخ "عـبد العـظيـم الـمُـنـذري"، الـذي بَـهر الـوالـد بـكـتـابـه"الترغيب والترهيب"،ومِن انْبِهاره بالكِتاب والكاتب، أَن سَمى ولَدين باسْمه، الأول انتقل إلى جوار اللـه، والثاني كاتب هاته الشهادة، الْمعتز بنسبته إلى فحل من فحول هذه الأمة، ومُحدِّث من مُحدثيها الكبار.

قالوا: لكل شخص نصيب من اسْمِه؟.

نعم، إن لكل شخص نصيبا من اسْمه، والشواهد على ذلك من حياة الوالد تترى، فالنصيب من اسم "محمد"، هو كل سلوك يقوم به حامل هذا الإسم، تأسيا برسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم، واتِّباعا له، وإحياء لسُنَّته عليه الصلاة و السلام.

أَسْرُد هنا بعض النَّماذج للتَّمثيل على عَظَمة الإبداع عند الوالد، في إحْياء السُّنة وحَمْل الناس عليها بالرفْق واللين:

لَما وصل الوالد إلى قصر"العشورية" وجد الناس في ما يُشبه الْجاهلية، كما حَكَى لي أَحد مُقربيه ، ولم يكن عندهُم اهْتمام بالعبادة، ولا إقْبال على الْمساجد والصلاة، وقد اتَّخذوا مِن الساحة الفسيحة أمام القَصْر، مكانا لتجمُّعاتِهم ونواديهم، لذلك اضْطَر الوالد للنُّزول إليهم، وغِشيانِهم في منْتدياتِهم تلك، مُستغلا فترة ما بعد العصر، لِيعظَهُم ويُعلِّمهُم أُمور دِينهم، وبقي معهُم على هذا الْحال، إلى أَنْ جذبَهم تدْرِيجيا إلى الْمسجد، فصاروا مِن عُماره وخُدامه.

ولَما انْتقل الوالد إلى "السيفة" دَرَجَ على الأمر نفسه، يذكر فُضلاء أهل البلد بافْتخار، كيف اسْتطاع حَمْل الناس على الصَّلاة في وقْتها، وكيف جرَّ التاركين للصلاة، - وهُم كُثر - إلى الْمسجد، لدرجة صار يَخْجل معها الناس مِن أَنْ يُشار إليهم بالبنان، إنْ هُم تأخَّروا في الاستجابة لِمنادي الفلاح.

بعدها دخل الوالد في تَحدٍّ خطير، لعادة تأصَّلت عنْدنا في البلد، و لم يستطيع كُلُّ الْمشاهير من العُلماء والفُقهاء، الذين تعاقبوا على الإمامة والْخطابة في مساجد "السيفة" مِن إزالتها، وهي العادة القاضية بضرورة حَمل أُضْحية الفقيه، من مكان ذبْحها – ولو بعُدَ – إلى مَحل سُكْناه، قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة.

الشباب - مُجَيَّشين بتشْجيع الشُّيوخ - يتحمَّسون لِهذا الأمر، وينْتِخبون الأقْوى منهُم، والأفْتل سواعد ، والأسْرع جرْيا، وفي طريقهم إلى بُغيتِهِم هذه، لا يَصدُّهم صاد، أو يَحول دُونَهم حائل، ولو طِفلا صغيرا خرج للفُرجة، مزْهُوا بِملابس العيد، وزينة العيد، فمصير هذا وأمثاله، الدَّهس والتمريغ في الْوَحَل.

ما الذي سيقوم به الوالد أمام مشهد هِذا وصْفُه، مع العلم أن حالة الاسْتنفار تُعلَن في البلد، بعد أداء صلاة العيد، ظنا مِنهُم أن وُصول الأُضْحية ميتة إلى بيت الفقيه "حرام"، هذا مُعتقدُهم ، وبئس الْمُعتقد هو، لكن مَن للأُضحية يُريحها؟ ومن لِوصِية رسول الله يُنافِح عنها ويَحْميها؟.

في موقف مشهود من الْمواقف العظيمة للوالد، أعْلن رفْضَه لِهذا السلوك الْمشين في خطبة العيد، وتَحدَّى مَن يَحمل أُضحيته أمام الْملأ، وأَشْهر السكِّين الْمضمَّخ بالدماء الفوارة في وجه الْجميع.

انْبهر الْخاصة والعامة لِهذا الْموقف، وذُهلت الْجموع الْمُتعطشة للفُرجة، وارتدت السواعد مُكرهة إلى أَغْمادها، وفارت النفوس، وكثُر الْهمْس والغمْز، وعمَّت الْحيرة، وزفَر القوم وتأفَّفوا. يا له من تَحد، وأكْرِم به مِن مُتحد، حقَّق الله على يديه بِداية النهاية لِهاته العادة، ولِكل التصرفات التي تُشْبهُها في الغاية والْمقصد.

في مقابل ذلك، حافظ الوالد على "عاداته العظيمة"، و لم يكن يُثنيه عنها تغيُّرُ ظروف، أو تبدُّلُ أحوال، فقراءة الْحزب مثلا عنده من لوازم يومه وليلته. أذكر يوما أننا لم نقرأ حزب الصباح لسفري معه من "العشورية" إلى "أرفود"، يومها لم يَجد الوالد فُرصة لاستدراك حِزبه الفائت، إلا بعد أن امْتطينا سيارة الأجرة، كما لم أجد بدا من متابعته في القراءة جهرا، إلى أن أنْهينا الْحزب ونَحن على مشارف مدينة "أرفود".

مشهد سيتكرر مرة أخرى مع الوالد، بعد أن تزوجت وولدت بنتي البكر "إيمان" حفظها الله، هاته الْمرة فوجئت بأمره لي بِمراجعة بعض السور من القرآن الكريم،

ونَحن على متن الْحافلة الْمكْتظة عن آخرها بالْمسافرين من "الدار البيضاء" إلى "زاوية الشيخ" حيث كُنتُ أسكن، وكانت النتيجة أن راجعت معه، وبصوت مُرتفع، خمسة أحزاب، شاركنا في حسناتِها كل الْمسافرين، فأجر السامع كأجر التالي، وأرجو أن يكون أجر الْجميع في صحيفة الوالد.

ولا أنسى اليوم الذي عقدت فيه قراني على زوجي، حيث فاجأ الوالد الْجميع، بضرورة تَحقق "الإيجاب والقبول"، نطقا وسَماعا، لأنه يرى عدم الاكتفاء بكتابة العقد، وأن السنة تتحقق بالتعبير الصريح، من طرف الزوج وولي الزوجة، بإيجابِهما وقبولهما، لذلك راح الوالد يُلقِّنني، ويلقن صهري "الْحاج الْمختار" رحمه الله، كل واحد منا على حدة ، ما يَجب قوله في حالة الْخِطبة، مع تسمية الصداق وقدره.

مر هذا الْمشهد أمام العدلين اللذين قدما لتوثيق عقد نكاحنا، وهما مندهشان، لدرجة صارا معها تلميذين وديعين، أمام الوالد، يُردِّدان ما يقوله، ويأتَمران لأمره، وينفذان تعديلاته، على العقد وصياغته.

لم أتَمالك نفسي حينئذ، وانْخرطت في بُكاء حار، فرحا بِهذه الْموافقة العجيبة من قِبَل الوالد ، الذي طبع بداية زواجي بِتصرُّف، لا يقدم عليه إلا الْمميزون مثله.

المعلم الثامن : إشعاع العظمة واتساع دائرة التميز.

"دُكَّار تافيلالت" وصْفٌ مُعبِّر، ورد على لسان خال أمي، لَما سئل عن الوالد، و"الدكار" لِمن لا يعلمه، هو اللقاح الْمستعمل لتخصيب عراجين التمر وتَجويد منتوجها، يؤخذ من "ذُكور" النخيل، التي لا تُنْتِج سواه، وإذا لم تلقح "إناث" النخيل به، أنتجت حشفا.

"دكارتافيلالت"، تعبير مُستوحى من ثقافة البلد، وهو مكتنز بالدلالات، التي تلخص ماللوالد من مكانة في نفوس أهل البلد خاصة، وأهل تافيلالت عامة، على اتساع ربوعها، وتوسع دائرتِها، واختلاف أجناسها.

لذلك، قصد الناس الوالد من كل فج، طلبا للفتوى، والدعاء والعلم، واتسعت دائرة إشعاعه إلى خارج "تافيلالت"، عبْر طلبته الذين حببوا الناس فيه، وفي صُحبته، فهو مُرحَّب به في كل منطقة يزورها، وكل من تعرف عليه أحَبَّه، ورغِب في اسْتِضافته ومُجالسته، وهكذا اتسعت معارف الوالد، لتشمل كل أصناف الناس، من الفلاح الْمُتواضع، إلى البرلَماني الْمسيس، والكولونيل المنتشي بنياشينه وألقابه، والعامل والوزير.

ولا أنسى النداء الْحبيب، والوصف اللبيب، الذي خَصت به عائلة الصغيري والدي الكريم، الكل يناديه بـ" بَّايَا"[11]، يستوي في ذلك أبناء أعمامنا وعماتنا، وفروعهم وأصهارهم .... ، وكل من له قرابة بعائلتنا، ولا يَخفى ما في هذا النداء من دلالة رمزية، تَجعل"الحاج محمد بن العربي" أبا للجميع،وماسمعت أحدا من أفراد عائلتنا رغم كثرة أفرادها وانتشارهم ، يناديه باسمه العلم، سواء في ذلك الصغير والكبير، الذكر والأنثى، الحقير والجليل،الرفيع والوضيع[12]،

المعلم التاسع : العظمة أولا وأخيرا.

لا خلاف أن مِعيار الصدق في كل شيء، يتحقق بالاستمرار والثبات عليه، وقد أبى الله إلا أن يكرم الوالد بما يشهد لعظمته وتَميُّزه، في مَماته، كما في حياته.

فقد تزامنت وفاته مع الْموعد الشهري الذي تعقد فيه "جماعة العدل والإحسان"، "مَجلس النصيحة" في مُختلف مناطق الْمغرب، وهو مَجلس إيماني خالص، يختم فيه القرآن، وقد وهبت جُموع غفيرة من رواد هذا الْمجلس، ثواب ختماتِها لروح الوالد قبل أن يدفن، وكل من دخل لتوديعه الوداع الأخير، يُفاجأ برائحة الْمسك التي تضمخ الْمكان الذي سُجِّي فيه، كما فوجئ مغسلوه – وكُنتُ واحدا منهم – بلُيُونة جسده، ومطاوعته لَهم، ونظافته الشديدة، أما جنازته فهي مشهودة، لدرجة أنْ وصفتها إحدى جاراتنا "بالعرس"، لِما رأته من إقبال الناس

---

(11) أي:" أبي أنا" بدارجة أهل تافيلالت، جريا على عادتهم في دمج العبارات واختصارها وتذويب بعضها في البعض الاخر ومن ذلك أيضا "مَّايَا" أي "أمي أنا"

(12) حتى أخواله ينادونه ب"ابايا" ومنهم من هو أكبر منه سنا،

واهْتمامهم، وقد تواترت الْمبشِّرات، وتعددت الكرامات على نَحو مُتسارِع، بعد وفاة الوالد مباشرة، وهو ما دفعني لأُعلن في الناس أثناء حفل التأبين أن: "باب العزاء مفتوح قبل أن نواري الوالد الثرى، لكن بعد الدفن، وبعدما رأيناه من بشائر وكرامات، لم نعُد نقبل إلا من يهنئنا بِهذا الْمصير الْمطمئن، الذي أكرم الله به الوالد، نأمل ، ونرجو من الله الذي أعان الوالد على تَخليص حياته له، أن يَقبله عنده في مقعد صدق:"مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالِحين وحَسُن أولئك رفيقا".

إن كنت أنسى فلا أنسى، منظر "حدًّا"– ترخيم لاسم "أحمد"–، الرجل الطاعن في السن، الذي حمله شوق الْمُحبين، ودفعته لوعة الفراق، ليتحدى مُثبطات العزائم، من فقر، وهَرَم، ومرض، وبُعد مسافة، ليركب الْحافلة، مُتوجها إلى "مكناس"، ليعزينا في وفاة الوالد، وهو الذي لم يزر هاته المدينة منذ فجر الاستقلال[13]، وفي مُخيلته أن "مكناس" لا تَختلف في شيء عن قصر"العشورية"، لذلك لَما نزل ب"الْمحطة الطرقية"، لم ينتبه إلى ما تَختزنه أسوار المدينة من مئات الآلاف من الْمساكن، ولم يستطع بصره الأعمش، أن يدرك امتداد الْمدينة وتوسعها ، فنادى وسط الناس: "يا ولد الفقيه"[14]، ظنا منه أن"ابن الفقيه" لا يبعد عنه إلا أمتارا، كما في الْمساحة الْمحدودة لقصر العشورية، لكن هذا النداء وصل إلى الله تعالى، قبل أن يصل إلى آذان أحد الْمارَّة[15]، الذي انتبه لغرابة منظر الرجل، وعجب لصنيعه، فكان أن اقترب منه، عارضا الْمساعدة، وكم كانت الْمفاجأة، لَما علم "حدًّا" أن هذا الرجل يعرف "ابن الفقيه"، بل ومعه عنوانه ورقم هاتفه.

---

(13) ذكر لي هاتفيا أن آخر زيارة له لمكناس كانت في السنة التي التي حمل فيها الملك الراحل"محمد الخامس" إلى المنفى

(14) هذا هو وصف أهل العشورية لأخي محمد كاتب الرسالة. كان الكل يدعوه بـ" ابن الفقيه".

(15) ذكرني هذا بقول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، لما كانت قرب النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحاور "خولة بنت ثعلبة، قالت عائشة: "الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم تكلمه، وأنا في ناحية البيت، ماأسمع ماتقول، فما برحت مكاني حتى نزل جبريل بهذه الآيات: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما، إن الله سميع بصير﴾

مَوقِفٌ لا تصِفه الكلمات، ولا تَحويه العبارات، وإن جَهَد الواصف نفسه ما جهد، لذلك ظل "حدًا" مسكونا بحرارة اللقاء، وروعة التوفيق، و لم تكُف عيناه عن البكاء، كلما ذُكِر الوالد عنده، أو تقدم للسلام عليه أحد إخوتي، أو أخواتي.

هكذا يكون الوفاء، وهكذا يكون تكريم الله تعالى، لِمن ظل وفيًّا لِمولاه، مُحبا له، خاشعا بين يديه، متبتلا راكعا وساجدا، جلَّ الله، ولا إله إلا الله.

المعلم الأخير: العظمة استمرار، وعطاء دائم مدرار.

هذه لفتات من تَجليات التميُّز والعظمة، في حياة والدي، وكل لفتة منها تَحتاج إلى التفاتات هادئة، مِن الآباء والْمُهتمين بشؤون التربية والتعليم، إذ فيها الْجواب الشافي، والدواء الكافي، لكثير من الْفلَتات التربوية والْمنهجية، التي نشكو منها في الْجوانب الْمختلفة لِحياتنا، سُلوكيا وعمليا.

أسأل الله أن يرفع بِها مقام الوالد عند العلي القدير، وأن يُكرمه بالنظر إلى وجهه الكريم سبحانه.

قبل الختام : العظمة وراثة تتجدد عبر الأجيال.

هذه كلمات في حق والدي الكريم، مِنْ شَهْدِ تربيته اعْتصرْناها؛

و مِن رَحِيقِ مَحبَّتِنا لـهُ ارْتشَفْناها؛

إنَّمَا هِي بَناتُ أَفْكارٍ، حُمِّلْنا أَمانَـة رِعايَتِها؛

وَ خَرائِـدُ أَبكَارٍ،أَوْكَلْنا إِلَى أَبْنائِـهِ وَأَحْفادِهِ أَمْرَ صِيانَتِها؛

و غُرَرٌ مِن غُرَرِ الغُرَرِ، رَجَوْنا أَهْلَ الْخَيرِ بِصِدْقٍ أَن يَـتذَوَّقُوها؛

وَ مَعالِمُ وصوى، فِي طَرِيقِ الإِصْلاَحِ بَنَيْناهَا؛

و عُقدٌ مَتِينةٌ،لِفَتلِ حَبلِ الْوَفاءِ رَجَوْناها؛

فَباللهِ عَلَيكُمُ، ياآلَ"الصَّغيري" عَنِ الْعَبَثِ صُونُوها؛

وَمِنْ طَرِيقِ الإهْمَالِ، أَزِيلُوهَا؛

وَ بِصَلاَحِكُمْ وَحُسْنِ سُلُوكِكُمْ وَشُوهَا؛

أَكْمِلُوا تَجَلِّيات الْعَظَمَةِ الْبَادِيَـةِ فِيهَا؛

فَمِنكُمُ نَرْجُو الْعَوْنَ بَعْدَ اللهِ بَارِيهَا؛

يَا أَمَلاً فِي خِلاَفَـةٍ رَاشِدَةٍ لِلْوَالِـدِ؛ بِالْعِلْمِ نَبْنِيهَا؛

عُرْبُون بِرٍّ وَصَدَقَة جَارِيَـة فِي اللـهِ نَـنْوِيهَا؛

فلْيُـبَارِكِ اللَّـهُ لَنا وَصِيَّةَ الْوالِدِ وَيَحْمِيهَا؛

وَلْـيُكْثِرْ نِتاجَهَا،وَبِالْخَيرِ يَسْقِيهَا؛

وَ لْيَشُدَّ أَزْرَ الْـمُهَجِ الصَّادِقَـةِ الَّتِي تفدِيهَا؛

حَتىً نَلْتقِي بِـهِ فِي الْجَناتِ وَنَحْكِيهَا

عَلَى سُرُرٍ مُتقَابِلَـةٍ وَنَـرْوِيهَا:

يَاوَالِدَنا هَذِهِ غِرَاسُكَ نَـنْشُرُها لِلْعالَمِينَ وَنُزكِّيهَا

مَادَامَتْ ذِكْراكَ فِينا لِلْخَيْرتُحَـفِّزُنا

وتَشْحَذُ هِمَّتنا وتُـقَوِّيها

نَحْنُ عَلَى الْعَهْدِ مَاضُونَ يَاأَبَتِي

وَإِلَى الْمُلْتقَى فِي جنَّاتِ الْخُلْدِ الَّتِي عشقتها وترجوها.

الفهـــــارس

- فهرس الآيات القرآنية
- فهرس الأحاديث النبوية
- فهرس المواعظ والحكم
- فهرس الأبيات الشعرية
- فهرس إجمالي للمواضيع

فهرس الآيات

وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس 75

ألم تركيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة 8

أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما 117

وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا 56

إن الذين سبقت لهم منا الحسنى اولائك عنها مبعدون 61

إن الذين ءامنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا 73

إنما يخشى الله من عباده العلماء 41

أولائك الذين هدى الله فبهداهم اقتده 24

تلك القرى نقص عليك من انباءها 9

وتلك حجتنا ءاتيناها إبراهيم على قومه 23

سيهزم الجمع ويولون الدبر 71

واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا 53

وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما 89

كذلك نقص عليك من انباء ماقد سبق 24

لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة 23

وكلا نقص عليك من انباء الرسل مانثبت به فِؤادك 24
كذلك نقص عليك من انباء ماقد سبق 24
الذين يظهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهم 101
والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه 8
لقد كان في قصصهم عبرة لألي الألباب 9
قل اللهم مالك الملك توتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء 73
والله غالب على أمره 15
ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا 77
نحن نقص عليك نبأهم بالحق 9
فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الارض وتقطعوا ارحامكم 14
وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن اراد أن يذكر أو أراد شكورا 49
وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة 61
ياأهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم 10
وقرى في بيوتكن 48
ياأيها الذين ءامنوا اتقوا الله حق تقاته 94
ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة 94
ياأيها الذين ءامنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا 94
يرفع اللع الذين ءامنوا منكم والذيت أوتوا العلم درجات 41

فهـرس الأحاديـث

الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله 117

إذا كان الرجل بأرض قيءفحانت الصلاة فليتوضا 77

إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه 65

أرحنا بها يابلال 76

الأرواح جنود مجندة 7

إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا مايرضي ربنا 98

إن الله تعالى إذا أحب عبدا دعا جبريل عليه السلام 73

إني أراك تحب الغنم والبادية 76

أوصاني حبيبي بثـلاث 77

أوصاني خليلي بصيام ثلاثة أيام من كل شهر 77

تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير عودا عودا 80

جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أي الناس خير 81

حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة 76

رب أعني ولا تعن علي 69

الراحمون يرحمهم الرحمن إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء 64

ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه 77
عبادة في الهرج والفتنةكهجرة إلي 75
والكلمة الطيبة صدقة 24
لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق 17
لا تحقرن من المعروف شيئا 21
لولا عباد لله ركع وصبية رضع وبهائم رتع 18
و لم يمنعوا الزكاة إلا منعوا القطر من السماء 18
ماجلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه و لم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة 74
مامن عبد مسلم يصلي لله تعالى في كل يوم ثنتي عشرة ركعة 78
من صلى الصبح في جماعة ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس 78
من صلى صلاة الفجر ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس وجبت له الجنة 78
منهومان لايشبعان طالب علم وطالب الدنيا 40
من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار 65
نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قيل وقال وكثرة السؤال 74
يأتي على الناس زمان خير مال الرجل الغنم 81
يعجب ربك من راعي غنم في رأس شظية 76

فهرس المواعظ والحكم

الحكايات جند من جنود اللـه يثبت اللـه بها قلوب أوليائه 26

الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب إلي من كثير من الفقه 26

خذوا حظكم من العزلـة 81

عند ذكر الصالحين تتنزل الرحمة 26

طريق من آثر العزلة أن يعتقد سلامة الناس من شره 81

قد تغير الزمان حتى كـل في وصفه اللسان 80

العزلة راحة من خلاط السـوء 81

لو لم يكن في العزلة إلا السلامة من الغيبة 81

ماأقبل أحد بقلبه على الله إلا أقبل الله بقلوب أهل الإئمان إليه 73

من أسر سريرة ألبسه الله رداءها 79

من كان مستنا فليستن بمن قد مات 26

من شب على شيئ شاب عليـه 59

فهرس الأبيات الشعرية

إذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما تثني وفوق الذي تثني 56
أقاموا بظهر الأرض فاخضر عودها وصاروا ببطن الأرض فاستوحش الظهر 19
أقول لها والعيس تحدج للسرى أعدي لفقدي مااستطعت من الصبر 100
إن تبق تفجع بالأحبة كلهم وفناء نفسك لاأبا لك أفجع 99
ألا يامستعير الكتب دعني فإن إعارة الكتب عار 103
أودعكم وقد شق الفراق وللكبد انصداع واحتراق 104
وبعد فالتاريخ والأخبار فيه لنفس العاقل اعتبار 12
واحرص على العزلة مااستطعت وإن تسرمن دونها انقطعت 80
فغرب ولا تحفل بفرقة موطن تظفر بالمنى في كل ماشئت من حاج 47
سيذكرني قومي إذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر 100
كتابي لايعار ولو برهن مخافة أن يلوث بالمداد 103
فالاقتفاء واجب محتم علينا في اللفظ وفيما رسموا 105
في عقد الاشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيدي السالك 82
وللعلم أيام هي السعد كله وأما ليالي الجهل فهي مناحس 100
لعمرك مالرزية فقد مال ولا شاة تموت ولا بعير 98
لقاء الناس ليس يفيد شيئا سوى الهذيان من قيل وقال 80
لمدها فعلاء أفعلاء مثلث العين وفعلاء 42
ليس بإنسان ولا عاقل من لا يعي التا ريخ في صدره 13
وما أبالي وخير القول أصدقه حقنت لي ماء وجهي أو حقنت دمي 15
وما شرف الأوطان إلا رجالها وإلا فلا فضل لترب على ترب 19
مالفخر إلا لأهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى أدلاء 99

.... ما   كَانَ أَصَحَّ عِلْمَ مَنْ تَقَدَّمَا 99

أمر مع استعلا و عكسه دعا   وفي التساوي فالتماس وقعا 96

وما كنت أهلا للذي قد كتبته   وإني لفي خوف من الله نادم 21

مافي المقام لذي عقل وذي أدب   من راحة فدع الأوطان واغترب 46

يا ناظرا فيما أعددت لجمعه   أعذر فإن أخا البصيرة يعذر 21

يذكرني طلوع الشمس صخرا   وأذكره بكل مغيب شمس 5

يقرب الأقصى بلفظ موجز   ويبسط البذل بوعد منجز 44

يَظُنُّونَ بِي خَيْرًا وَمَا بِي مِنْ خَيْر   وَلَكِنَّنِي عَبْدٌ ظَلُومٌ كَمَا تَدْرِي 108

وَلَيسَ الجودُ مُنتَحَلاً وَلَكِن   عَلى أَحسابِها تَجري الجِيادُ 119

فهرس المصادر والمراجع

✓ القرآن الكريم
✓ بيان العلم وفضله لابن عبد البر
✓ الترغيب والترهيب للحافظ المنذري
✓ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير
✓ الجامع لأحكام القرءان للقرطبي
✓ حلية الأبرار وشعار الأخيار في تلخيص الدعوات والأذكار المستحبة في الليل والنهار للإمام النووي
✓ ديوان أبي العباس الهلالي
✓ الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري
✓ صحيح الإمام أبي عبد الله البخاري
✓ صحيح الإمام مسلم
✓ صحيح الجامع الصغير للألباني
✓ ضعيف الجامع الصغير للألباني
✓ صفحات من صبر العلماءلأبي غدة
✓ المستدرك على الصحيحين
✓ سجلماسة وإقليمها
✓ سجلماسة كمحطة للتواصل الحضاري بين ضفتي الصحراء لحسن توشيخت
✓ سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي

- ✓ فتح الباري شرح البخاري لابن حجر العسقلا ني
- ✓ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري
- ✓ مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري لهاشم القاسمي
- ✓ النسق الغالي والنفس العالي
- ✓ الدرر البهية لإدريس بن أحمد الفضيلي
- ✓ الاستقصا للناصري
- ✓ خلاصة الاثر في أعيان القرن الحاي عشر للمحبي

فهرس إجمالي للمواضع

إهـــداء 3

تقديـــم لفضيلة الشيخ محمد أحمد زحـــل 5

مقـدمـة 17

بين يدي الرسالة: 23

في ذكر سير الصالحين دعوة للتأسي والاقتداء 23

السيرة الذاتية 29

الاسـم والنسـب 30

المولـد 31

أبـوه 31

أمـه 33

في الكـتاب 33

في الميدان العلمي والمسؤوليـة 35

الـزواج الأول 36

بـوادر الخيـر 37

من هو ابـن الشيـخ 38

الرحلـة الى فـاس 40

منهجه الدراسـي في فـاس 41

العلوم التي درسها في فاس 43
العودة إلى مسقط رأسه 45
الزواج الثاني 47
إلى العشورية 48
احتكاكه بأقطاب الطريقة الدرقاوية 49
من هو السيد محمد بن الحبيب 52
المستعمر الفرنسي يتابع تحركات الوالد 53
الوالد في السجن 54
محنة سكان قصر العشورية 55
الوالد يحاضر بالجرف 56
العودة إلى مسقط رأسه 56
الاستقرار بمكناس 58
وفاته 59
تلاميذ الوالد 61
مناقبه وفضايله 63
للوالد فضائل 64
حبه للسنة ودفاعه عنها 65
حبه للأدعية النبوية 66
كراماته 70
شخصية الوالد 72
عبادته 75

عزلته 78
حديثه 82
موقفه من الصحوة 82
فقهه 85
مع تفاسير القرآن 87
شأنه مع السياسة 88
أعماله 89
تربيته لأولاده 89
الكتب المحببة إليه 91
الشخصيات المعجب بها 91
شهادات 93
كلمة الشيخ محمد الفزازي 94
كلمة الأستاذ محمد الإدريسي 98
كلمة الأستاذ محمد النوايتي 102
كلمة الأستاذ الباحث محمد العمراوي 105
كلمة الشيخ الوقور عبد الله بن المدني 108
كلمة الدكتور عبد الله صغيري 110
كلمة الدكتور الحاج المهدي بابا خويا 114
كلمة الدكتور محمد رفيع 116
كلمة الدكتور عبد العلي المسئول 119
كلمة الأستاذ عبد العظيم صغيري 121


مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء